حَيَاةُ الرُّوحِ

الدكتور

يَحْيَىٰ أَحْمَد المُرْهِبِي

حياة الروح

تأليف

د/ يحيى أحمد المرهبى

مراجعة وتنسيق

د/بكيل المرانى

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

الشكر للّه أولا وأخيرا، فهو الذي وفق وأعان على إخراج هذا الكتاب ليرى النور، ويصل إلى القراء الأفاضل ليستفيدوا منه.

والشكر موصول لكل من ساهم في إنجاز هذا الكتاب بأي جهد قلّ أو كثر.

والشكر والتقدير للأخ العزيز الدكتور/ بكيل المراني على ما بذله من جهد في إخراج هذا الكتاب بحلته القشيبة هذه، فله أسمى آيات الشكر، وأسأل اللّه أن يجعل ما قام به في ميزان حسناته.

إهداء

إلى كل من يرون أننا نعيش في عصر الماديات، التي طغت بكل عنفوانها على الروحانيات.

إلى كل من يرون أن الدنيا بمادياتها قد احتلت من قلب الإنسان نصيب الأسد، وكان ذلك على حساب الروح.

إلى كل من يرون أن مساحة الإيمان في القلوب قد انحسرت، وحل محلها التطلع إلى الدنيا وهمومها.

إلى الباحثين عن واحة يتولون إليها بحثا عن الظل والطمأنينة، رافعين أكفهم ومرددين مع نبي اللّه موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: (ثم تولى إلى الظل، فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير)، في ظل لهيب المادية الطاغي في عصرنا الحالي.

إلى كل هؤلاء جميعا أهدي هذه المحطات الوارفة الظِلال، كي يجدوا فيها بعض الراحة والطمأنينة والفائدة.

المقدمة

حب التطلع إلى المعرفة سمة من سمات الإنسان، فهو يهفو إلى معرفة كل مجهول، ويسعى بكل ما أوتي من قوة. للكشف عن كل محجوب، إن حب الفضول عند الإنسان طبع وسجية، فقد غرس الله فيه ذلك وهو بين يديه، في أول اتصال لهذا الإنسان بالحياة، بعد أن نفخ الله فيه من روحه، وقد أراد الله لهذا الإنسان ذلك التطلع والشوق للمعرفة، ومكنه منه، ووجهه ربه عند عرضه على الملائكة، بعد أن جعله صاحب علم، فقال تعالى: (وعلَّم آدم الأسماء كلها)، وحثه على طلب الزيادة والاستزادة من العلم، فقال تعالى: (وقل رب زدني علما).

وأمام هذا العطاء الإلهي الذي منحه الله للإنسان (الروح والعلم)، تطلع الإنسان إلى معرفة كل شيء، ومن ذلك تطلعه إلى معرفة كنه الروح التي نفخت فيه، تلك الهبة والمنحة الإلهية، ولكن أنى له ذلك؟ وقد قال له ربه عندما تساءل عن ماهية هذه الروح: (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)، فقد استأثر الله بعلم ماهية هذه الروح وكنهها، ووجه الإنسان بدلا عن ذلك إلى طلب المدد من ربه لترقيتها والسمو بها إلى باريها جل جلاله.

ولأن الله كان أرحم بهذا الإنسان من نفسه، فقد حثه على التوجه إلى سبل إحياء هذه الروح، والبحث عما يسمو بها، بدلا من تضييع الجهد في التعرف على كنهها وماهيتها، لأن هذا الأمر لا طائل من ورائه، وهو مما اختص الله به نفسه، والبحث فيه لن يوصل الإنسان إلى بر الأمان، فكان الأولى والأسلم للإنسان أن يبحث عن طرق ووسائل تغذية الروح ومصادرها ليرتوي منها، وعند ذلك يكون قد سلك طريق السلامة والنجاح.

ولأن الروح ربانية المصدر، (ونفخت فيه من روحي)، فإن غذاءها

يكون من مصدرها، ومصدرها القريب كتاب ربها، (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا)، فحياة الروح مرتبطة بروح الحياة (القرآن الكريم)، فالروح هبة الله والقرآن كلام الله، ولا حياة لهذه المنحة الإلهية حياة كاملة، إلا بأن ترتوي من كلام الله، حياة الروح وروح الحياة.

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته

أتعبت نفسك فيما فيه خسران

أقبل على (الروح) واستكمل فضائلها

فأنت (بالروح) لا بالجسم إنسان

وهذا الكتاب على صغر حجمه، يناقش موضوع الروح، لا من حيث ماهيتها وكنهها، ولكن من ناحية حياتها وسموها، ويحاول أن يغوص في ثنايا كلام الله سبحانه وتعالى، وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم، ليقبس بعضا من الدرر التي تضيء لهذه الروح طريقها، كي تعاود العروج مرة أخرى إلى باريها، كما يحاول هذا الكتاب أن يتطرق إلى بعض الوسائل المعينة للإنسان، التي من خلالها يستطيع أن يضع قدميه على سلم الرقي الروحي، كي يتخلص ـ ما استطاع إلى ذلك سبيلا ـ من ثقل طينته، التي تعمل على إبقائه ملتصقا بالأرض الطينية، بينما هو يعشق التحليق عاليا، بجناحي الحب والشوق، ليعود إلى مسكنه الأول الذي أُهبط منه. أتمنى أن يكون ما تضمنه هذا الكتاب هو ما أراده الشاعر حين قال:

حديث الروح للأرواح يسري

فتدركه القلوب بلا عناء.

كما أتمنى أن يجد القارئ العزيز بغيته بين ثنايا هذه الصفحات، وأن يزجي لصاحبه بعض الدعوات، والله الموفق والهادي إلى سبل السلام.

المحتويات

- الشكر والتقدير.. ٤
- الإهداء ٥
- المقدمة.. ٦
- قل الروح من أمر ربي ٩
- علاقة الروح ببقية الملكات .. التوازن مطلوب........................١٥
- غذاء الروح .. أنت ما تتغذى عليه................................ ٢٦
- بعد نفخ الروح كان سجود التكريم................................. ٣٧
- العزلة المؤقتة الواعية لملمة لشتات الروح ٤٠
- التأمل .. رياضة العقل وجنة الروح ٤٧
- الروح والعقل والجسد... كيان متناغم في الإنسان السوي ٦٤
- الدعاء... معراج الروح وسبيل وصلها بأصلها ٧٢
- الأرواح جنود... ما تعارف منها ائتلف............................ ٨٦
- حديث الروح للأرواح يسري...................................... ٩٠
- جمال الروح... حياة ونضارة... .... ٩٥
- بصمة الروح... يقولون مرّ وهذا الأثر ١٠٠

قُلِ الرُّوحَ مِنْ أَمْرِ رَبِّي

ليس بالجسم والعقل فقط يمكن أن تتحقق حقيقة الإنسان، ولا أن يسمو الإنسان السمو الذي يليق به، وإنما يتحقق له ذلك (بالروح الفاعلة الإيجابية)، التي تقود جسده وعقله وتصهرهما في بوتقة إنسانية، يحلِّق بها الإنسان في السماء فوق الطيور ومع الملائكة ومع كل الأشواق العليا، ويُخضِع بها غرائزه وإبداعات عقله لغايات سامية تبني ولا تهدم، ترتفع ولا تهبط، تصوغ الحياة صياغة ربانية، وليس صياغة حيوانية صراعية.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ {الإسراء:٨٥} هكذا جاء الخطاب القرآني، وللقرآن خاصية عجيبة في التعامل مع السؤال، فإن كان السؤال عن شيء يضر الجهل به أجاب السائلين عنه، وإن كان السؤال عن شيء لا يضر الجهل به لفت القرآن أنظار السائلين إلى ناحية أخرى نافعة، كما في سؤالهم عن الأهلّة والإنفاق، وفي هذا إشارة تربوية لكل معلم ومربٍّ، أن يكون هذا حاله في التعامل مع أي سؤال يوجه إليه مع من يعلمهم ويربيهم.

وقد جاءَت مُحاورةُ النبي - صلى الله عليه وسلم - لقومِه صرْفا لهم عن مثلِ هذهِ المواضيعِ التي تخرجُ عن السّياقِ العملي الجديد، وتُذكِّرُ بالمواضيعِ المُناسبةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ {الإسراء:٨٥} ، فالسّياقُ العملي الجديدُ ليسَ في السّؤالِ عن الرّوحِ، ولكن في الإعدادِ لَها. وقد تكرَّرَ هذا الأسلوبُ كثيرًا في كلام الله وكلام رسوله-صلى الله عليه وسلم-، وفيه صَرْفٌ للسّائلِ إلى ما ينبغي أن يصرِفَ

إليـه هَمَّـه.

والقـرآن يتحـدث عـن إطلاقـات متعـددة للـروح منهـا: الـروح التـي تمد الجسـم بالحيـاة إن اتصلـت بـه ﴿ فَـإِذَا سَـوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيـهِ مِنْ رُوحِـي فَقَعُوا لَهُ سَـاجِدِينَ ﴾ {الحجـر:٢٩} ، فـإذا مـا فارقـت هـذه الـروح الجسـد فقـد فـارق الحيـاة وتحـول إلى جثـة هامـدة، وقـد تـأتي لتـدل عـلى أمـين الوحـي جبريـل عليـه السـلام ﴿ نَـزَلَ بِـهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾ {الشـعراء:١٩٣} ، وقـد تطلـق الـروح عـلى الوحـي ذاتـه ﴿ وَكَذَلِـكَ أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ رُوحًـا مِـنْ أَمْرِنَـا مَـا كُنْـتَ تَـدْرِي مَـا الكِتَـابُ وَلَا الإِيـمَانُ وَلَكِـنْ جَعَلْنَاهُ نُـورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَـاءُ مِنْ عِبَادِنَـا وَإِنَّـكَ لَتَهْـدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ {الشُّـورى:٥٢} ، وتـأتي بمعنـى التثبيـت والقـوة ﴿ أُولَئِـكَ كَتَـبَ فِي قُلُوبِهِـمُ الإِيـمَانَ وَأَيَّدَهُـمْ بِـرُوحٍ مِنْـهُ ﴾ {المجادلـة:٢٢} .

وقـد تسـاءل الشـيخ الشـعراوي عـن العلاقـة بـين هـذه الإطلاقـات المتعـددة، وخـرج بهـذه الإشـارات اللطيفـة، فالـروح التـي بهـا حركـة الحيـاة إذا وجـدت في الإنسـان تعطـي مـادة الحيـاة، وماديـة الحيـاة شيء، وقيـم الحيـاة شيء آخـر، فـالأولى قصاراهـا الدنيـا، لكـن روح المنهـج النـازل مـن السـماء (الوحـي) خالـدة، ولهـذا سـماها الشـيخ الشـعراوي (روح الـروح) لمـاذا؟ لأن الـروح التـي تعيـش بهـا في الدنيـا عرضـة لأن تسـلب منـك، وتسـلب منـك في أي مرحلـة مـن مراحـل حياتـك، منـذ وجـودك جنينـا في بطـن أمـك إلى أن تصـير شـيخا طاعنـا في السـن، أمـا روح الآخـرة، وهـي روح القيـم وروح المنهـج فهـي الـروح الأقـوى والأبقـى، لأنـه لا يعتريهـا المـوت، وفي هـذا إشـارة واضحـة إلى أن الحيـاة الأبديـة هـي في الارتبـاط بمـا لـه روح خالـدة لا بمـا فيـه روح مفارقـة.

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ {الإسراء:٨٥}، أي أن هذا من خصوصياته هو سبحانه، وطالما هي من خصوصياته، فلن يطلع أحد على سرها. وهل هي (أي الروح) جوهر يدخل الجسم فيحيا، ويسلب منه فيموت، أم هي مراد (بكن)، فإن قال لها: كن تحيا، وإن قال لها موتي تمت؟

إن علم الإنسان سيظل قاصرا عن إدراك هذه الحقيقة، وسيظل بينهما مسافات طويلة، وهل عرف العقل البشري كل شيء حتى يبحث في أسرار الروح؟ وقد تعرض أحد العلماء للنقد، واعترض عليه أحد الأشخاص، فقال له العالم: وهل أحطت علما بكل شيء في هذا الكون؟ فقال الرجل: لا. فقال له العالم: فما عندي هو من الذي لم تحط به علما.

إن الله حينما يعطينا فكرة عن الأشياء لا يعطينا إياها بحقائق ذاتها وتكوينها، لأن أذهاننا قد لا تتسع لفهمها، وإنما يعطينا الفائدة منها، ذلك أن الاستفادة بالشيء ليست فرعا لفهم حقيقته. إذن الاستفادة بالشيء لا تحتاج إلى معرفة كل شيء عنه، فيكفيك أن تستفيد منه دون أن تدخل نفسك في متاهات البحث عن حقيقته، خاصة وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن هذا الشيء (الروح) أنه يختص به وحده، ولو كان في معرفته منفعة لبيّن حقيقته لنبيه- صلى الله عليه وسلم- ، ولكنه استأثر به لنفسه لحكمة جليلة يعلمها سبحانه.

وقد نبهنا الله سبحانه إلى هذه المسألة بقوله: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ {الإسراء:٣٦} ، أي لا تتبع

من العقائد ما ليس لك به علم، ولا من الآراء ولا من الأحاديث ما لا تعرف له دليلا، ولا تسترسل في الحديث عما ليس لك به علم. فالله سبحانه يريد للإنسان أن يوفر طاقاته الفكرية ليستخدمها فيما يجدي، وألا يتعب نفسه ويجهدها في علم لا ينفع، وجهل لا يضر.

وبناء على ما سبق فالمسلم الموفَّق بدل أن يشغل تفكيره في معرفة أسرار الروح، عليه أن ينشغل بعمل ذي فائدة له ولمجتمعه، وأي فائدة قد تعود على الإنسان إن توصل إلى سر من أسرار الروح، وهيهات له أن يصل؟! وأي ضرر سيقع عليه إذا لم يعرف شيئا عنها؟ إذن فمناط الأشياء أن تفهم لماذا وجدت؟ وما الفائدة التي تعود علينا منها؟

﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ {الإسراء:٨٥} ، في هذا الجزء من الآية إشارة إلى كمال علم الله وقصور علم الإنسان، وأنه مهما بلغ من العلم فلم يعط منه إلا القليل، وهذا يوحي للمؤمن بأمرين: الأول: التواضع أمام علم الله المحيط بكل شيء أولا، والتواضع لمن هم أعلم منه، ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ {يوسف:٧٦} وكأنه سبحانه يقول للإنسان: يا ابن آدم، الزم غرزك، فإن وقفت على سر أو علمت شيئا، فقد غابت عنك أسرار وأشياء. والأمر الثاني هو شغف الإنسان بالعلم وطلبه المدد من ربه ليزداد علوا ورفعة، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ {طه:١١٤}، فالمؤمن الحق بين طلب زيادة يرتقي بها، وبين تواضع يبدو من خلاله أنه مهما بلغ من العلم كثرة واتساعا فستكون تلك الكثرة والاتساع أمام علم الله الكامل الشامل قليلا.

وإن كان هناك من هدف لهذه الوقفات فهو أنها تسعى إلى العودة بالإنسان إلى ذاته وفطرته، إلى إعلاء روحه الكامنة التي صنعت الحضارات الحقيقية، إلى تقوية تلك الروح التي لا تحسب بالأرقام ولا بالمكاييل والموازين، إلى استلهام تلك الروح وما فيها من معانٍ تزود المرء الحائر بمعالم الهداية وإشارات النور والحقيقة بعيدا عن سقطات الصوفية وضلالات الفلاسفة.

عِلاقَةُ الرُّوحِ بِبَقِيّةِ المَلَكاتِ
التَّوازُنُ مَطْلُوبٌ

الإنسان مخلوق من عنصرين: (جسد) من طين و(روح) نورانية من أمر الله تحل في الجسد فتحييه، وينتج عن اندماج الروح والبدن (نفس) تدبر هذا المخلوق وتعطيه وحدته وتكامله. يترتب على الطبيعة المادية الطينية للجسد وجود ميل طبيعي في النفس للإفراط وتجاوز الحدود، وذلك لغرض محدد هو المحافظة على بقاء الإنسان واستمرار وجوده حيًّا، مما ينتج في النفس صفات (كنفاذ الصبر والاستعجال) لما ليس عندها، (والشح والبخل) بما عندها، (والبطر والفرح والعُجب) بما تراها تميزت به عن الآخرين، (والجزع واليأس والهلع) عندما تفقده، (والمِراء واللدد في الخصومة) إن تنازعته مع الغير وهكذا.

ومسلم اليوم مطالب بأن يبحث عن التوازن في كل مظاهره وأشكاله: يوازن بين إمكاناته وطموحاته، وبين حاضره ومستقبله، وبين حاجاته الروحية والفكرية، وحاجاته المادية، وبين خصوصياته وعلاقاته الاجتماعية.

حتى حين دعا الإسلام إلى تذوق (جماليات الحياة) لم يكن يسعى فحسب إلى تحقيق التوازن في نفس المؤمن بين احتياجاته المادية وأشواقه الوجدانية والروحية، وإنما كان يتجاوب في الوقت ذاته مع فطرة الإنسان وطبيعته، وهي الطبيعة التي ما كان يمكن كبتها أو تجاهلها، وإلا فقد الإسلام أحد أهم مميزاته، من حيث كونه دين الواقعية والفطرة، الذي هذّب نوازع الإنسان ولم يقمعها، أهم من هذا وذاك، وفق تعبير المفكر الإسلامي(فهمي هويدي) ، أن تلك الدعوة اعتبرت سبيلاً إلى تثبيت الإيمان وتأكيد الثقة في قدرة الله، خالق الأكوان ومبدعها، الأمر الذي يجعل من (الفن الإحيائي) الذي ندافع عنه سبيلاً إلى تعزيز الإيمان بالله وبابًا

من أبواب التقرب إليه سبحانه، عبر الإعلاء من شأن نعمه التي أسبغها على الكون.

وتأمل معي التشبيه العجيب الذي أورده الأستاذ (محمد قطب) عندما تحدث عن طبيعة التوازن والتي سماها (التداول)، فقد ذكر أن التداول الدائم بين نشاط الجسم ونشاط الروح، يساعد الإنسان على التوازن في نقطة الوسط التي يلتقي فيها الجسم والروح على استواء. فهو كالذي يسير على عارض دقيق، يميل مرة هنا ومرة هناك لكي يحفظ توازنه في كل مرة ولا يمنعه الميل هاهنا وهاهنا من الوصول إلى التوازن، بل قد يكون هو الذي يعاونه على الاتزان.

وفي الفطرة يتوازن عنصر المادة مع عنصر الروح، وفيها يتوازن عنصر العقل مع عنصر الأحاسيس والعواطف، وفيها يتوازن البعد الفردي مع البعد الجماعي في ذات النفس، وهكذا فإن هذه الفطرة قائمة على توازن دقيق بين مكونات كثيرة من المتقابلات، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ {التِّين:٤} ، فحسن التقويم إنما يظهر أكثر ما يظهر في توازن ما خلق عليه الإنسان من القوى والمركبات المكونة لفطرته، وليس لذلك التوازن نظير في سائر المخلوقات الإلهية الأخرى.

ولذلك لسنا منقسمين إلى أناس أخيار وأناس أشرار فحسب، وفق تعبير المفكر الإسلامي (علي عزت بيجوفيتش)، ولكننا منقسمون إلى أخيار وأشرار في داخلنا. فالانقسام ليس بين الناس، وإنما داخلهم. وهناك كذلك انقسام بين الناس إلى أخيار وأشرار، ولكنه انقسام ثانوي ناشئ عن قدر معين من التوازن بين الخير

والشر داخل الإنسان. الانقسام الأساسي هو المتعلق بالخير والشر داخل الناس. ومن ثم، فالصراع صراع ذاتي جواني درامي، وليس صراعا اجتماعيا برانيا. الصراع الحقيقي موجود داخل الروح.

ومن ثم، وبناء على ما سبق الحديث عنه، فإن إعادة التوازن لا تعني بالضرورة (إنقاص الكفة الراجحة)، وإنما تعني (إثراء الكفة المرجوحة). وعلى هذا كانت العناية بالجانب الروحي (صرخة حياة، ومطلب إنقاذ). ولأجل هذا نشط البحث حول الأبعاد المعيارية في الدين والأخلاق، لكي يستقيم الواقع وتذهب أسباب التصدع وتنتفي آثاره.

يقول أحدهم قرأت نظرية (الدّراجة)، وأعجبت بها كثيرا، حيث تدّعي النظرية أنه ليس بوسعك أن تحقق توازنك وأنت تجلس فوق الدراجة وهي واقفة، لكن عليك أن تسير بها، ثم تنحرف قليلاً يميناً أو يساراً إلى أن تحقق توازنك، وتصحح طريقك. فكرت في النظرية كثيرا، فوجدت بالفعل أن التوازن والتصحيح يجريان وأن تسير قُدُما إلى الأمام، وليس وأنت واقف، أو تنتظر استكمال الحسابات ورسم الخطة.

إن الإسلام في حقيقته صورة عن الإنسان، أو هو يشبه الجسم الإنساني بصورة من الصور، لأن خالق الإنسان ومنزل الإسلام واحد، ولا يكون الجسم كائنا حيا سويا ما لم يكن متوازنًا متناسقا، وكما أن لكل عضو في الجسم الإنساني وظيفة محددة، فإن قيمة كل عضو بقدر الوظيفة التي يقوم بها، وكذا الإسلام بأركانه وشرائعه يشبه هذا الجسم في نسق مترابط العلاقات متكامل الوظائف

كأعضاء الإنسان، فإذا انتفخ عضو فيه أصاب الشللُ عضوا آخر، وإذا ضمر عضو منه فلن يكفي امتلاء عضو آخر. والإسلام جاء ليربي ويزكي الإنسان في جميع الجوانب، ليعدّه في هذه الأرض ليكون خليفة لله، وفي الآخرة ليكون من المفلحين بناء على نجاحه في خلافته في الأرض.

وهذه الجوانب التي يريد الإسلام التربية عليها ليست متقاطعة أو متباينة بل هي متكاملة ومتناغمة ومتجانسة مع بعضها البعض، ولا غنى لآحادها عن مجموعها لبناء الشخصية المسلمة المتكاملة. والذي يحدث في حال الإخلال بهذه الجوانب (اعتقادية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو إنسانية أو حضارية...) زيادة أو نقصا (إفراطا أو تفريطا)، هو اختلال في الشخصية وفقدان لتوازنها، وعند ذلك تجنح إلى الغلو والتطرف.

فهناك من يأخذ جزءا من الدين ويضخّمه ويركز عليه ويعتبره هو الدين، ويتم ذلك على حساب الجوانب الأخرى، عندها سنجد الرهبانية والانسحاب من الحياة عند من ضخّم الجانب الروحي والعبادي، كما نجد جانب الحرص على الدنيا وزينتها عند من ضخّم الجانب المالي والاقتصادي على حساب الجوانب الأخرى، كما نجد جانب العنف والقسوة عند من ضخّم الجانب الجهادي القتالي على حساب بقية الجوانب... وهكذا مع بقية الجوانب الأخرى.

ما أريد الوصول إليه هو أن الإسلام يصنع الشخصية المتوازنة المتكاملة عندما تتناغم وتتوازن جميع الجوانب في هذا الشخصية، دون تغليب جانب على جانب، وحسب الاستطاعة المأمور بها شرعا.

وقد تبيَّن لي (والكلام هنا للدكتور وليد سيف) أن مفتاح الشخصية وأزمتها الوجودية تتمثل في التنازع الخالد بين فردية الإنسان وانتمائه الجمعي، وهي مسألة تتعلق بسؤال الحرية. فالإنسان بطبعه ينزع إلى الجانبين معا، ويحتاج إليهما معا، ولكن هيهات أن يفوز بهما معا دون تسوية متوازنة، وتنازلات متبادلة، فكل منهما يطلب حظه من الآخر. والأفراد ليسوا سواء في طرق استجابتهم لهذا التنازع بين المطلبين، فبعضهم أقدر من بعض على الوصول إلى سوية متوازنة معقولة، وآخرون يغلِّبون أحدهما بأقدار متفاوتة قد تبقى في حدود الممكن المحتمل، وقد يشتط بعضها فيقع الصدام والتأزُّم، ولربما عاش بعض الناس حياتهم متأزمين يترجحون بين هذا وذاك. وربما رجحت ببعض الأشخاص فرديتهم القوية، فتنكبوا عن الجماعة فنبذتهم واقتضت منهم ثمنا باهظا.

وحقيقة الأمر أن الإنسان لن تظهر عظمته حين يكسب شيئاً ويخسر ذاته، فالفكر وحده لا يصنع إنساناً عظيماً، والعاطفة وحدها لا تصنعه أيضاً، والإنسان الحق فعلاً هو من يحقق التوازن الجميل بين القول والفعل، بين الفكر والوجدان، بين القلب والعقل والروح، فيجعل من الأفكار ألواناً من الفنون، ويشيع نبض الحياة في التأملات الروحية، فيجعل من التأملات حياة. ولو سئلت عن الشيء الذي نحتاج إليه أشد الاحتياج وعن الشيء الذي نطلبه، ولا نكاد ندركه، ونبحث عنه، ولا نكاد نجده، لقلت ما قاله الدكتور عبد الكريم بكار: «إنه التوازن والاتزان والاعتدال وإعطاء كل ذي حق حقه».

والميزة العظيمة في الإسلام أنه لا يتعسف بتنمية خصال لا جذور لها في

طبيعة الإنسان، وفق تأكيد المفكر (علي عزت بيجوفيتش). إنه لا يحاول أن يجعل منا ملائكة، لأن هذا مستحيل، بل يميل إلى جعل الإنسان إنسانا فقط، ففي الإسلام قدْرٌ من الزهد، ولكنه لم يحاول به أن يدمر الحياة أو الصحة أو الفكر أو حب الاجتماع بالآخرين أو الرغبة في السعادة والمتعة. هذا القدْر من الزهد أُريد به توازنًا في غرائزنا، أو توفير نوع من التوازن بين الجسم والروح... بين الدوافع الحيوانية والدوافع الأخلاقية. وهكذا ـ فمن خلال الوضوء والصلاة والصيام وصلاة الجماعة والنشاط والملاحظة والكدح والتوسط ـ يواصل الإسلام عمل الفطرة في تشكيل الإنسان.

وزبدة القول في هذه الخصيصة هي أنه ينبغي أن يتعانق الوحي والعقل، وأن تتكامل الروح والمادة، وأن يتضافر عالم الغيب مع عالم الشهادة، وذلك ضمن مشيئة الله العبادية وإرادته الكونية التي تجسدها السنن والنواميس، ويجب أن يتحقق ذلك بطريقة متوازنة بحيث لا ينفك العلم عن الإيمان، ولا ينفصل العقل عن النقل، ولا ينفصم التسبُّب عن التوكل، وفق تعبير أ. د. فؤاد البنا.

ولا يمكن تخيل سعادة دون توازن. وما كان للوسطية أن توجد لولا وجود الأشياء المتقابلة. والاستمرار يقوم على التوازن، والتوازن يقوم على الوسطية. ولم نشاهد انغلاقا شديدا في دولة ما إلا رأينا بعده انفتاحا غير متوازن لا يقل ضرره عن الانغلاق، والنتيجة هي فقد التوازن في الحالتين، والحضارة التي تنتزع الإعجاب، وفق تعبير الدكتور (عبد الكريم بكار)، هي الحضارة التي يجتمع فيها ما تفرق في غيرها. والحضارة التي لا تمتلك التوازن بين الجوانب الإنسانية والجوانب المادية

لا تستطيع أن تستمر طويلا.

والوحي الذي استدبره الغرب - لأسباب تاريخية - هو الذي يمنح إطار التوازن الكامل للأعمال التربوية وغيرها، وهو الذي يؤمِّن نوعا من الانسجام والتلاحم بين متطلبات الفطرة في النفس البشرية، ومتطلبات الانتماء التاريخي والمجتمعي ومتطلبات العيش الكريم. وبالتوحيد يقام التوازن الروحي/ المادي، وعن التوازن تنتج وحدة الشخصية، والشخصية المتوازنة تبني وحدة المجتمع. وكما يؤكد (ألبرت شفيتز) في كتاب (فلسفة الحضارة) أمر المآل الرهيب الذي آلت إليه الحضارة الغربية بفعل تمركز المادة، وما أنتجته من آثار فيقول: «والخاصية المروعة في حضارتنا هي أن تقدمها المادي أكبر بكثير جدًا من تقدمها الروحي. لقد اختل توازنها... فصرنا نغالي في تقدير إنجازاتها المادية، ولا نقدر أهمية العنصر الروحي في الحياة حق قدره... إن الحضارة التي لا تنمو فيها إلا النواحي المادية دون أن يواكب ذلك نموا متكافئا في ميدان الروح، هي أشبه ما تكون بسفينة اختلت قيادتها، ومضت بسرعة متزايدة نحو الكارثة، التي ستقضي عليها». وأمثال هذه المعطيات وغيرها أثارت حفيظة الفيلسوف الإنكليزي (برتراند رسل) حين قال: «الحضارة الحديثة أهملت الاهتمام بالروح، والعالَم اليوم بحاجة إلى دين جديد يجعل غاية الإنسان خارج هذه الحياة»، إنه يشير في الحقيقة - من حيث لا يدري - إلى الإسلام، الذي وازن بجدارة بين الجانبين، المادي والروحي، بما يحفظ للحياة توازنها المناسب.

والوضع الحالي للعلم ـ كما هو الآن في الغرب ـ قد أصبح مصدر قلق

للإنسان بعد أن انفصل التقدم العلمي الذي أحرزه الإنسان في عالم المادة عن التوجيه الديني والروحي؛ مما نتج عنه عدم التوازن بين الحاجات الروحية للإنسان الآخذة في الضمور، وبين حاجاته المادية التي أصبحت طاغية إلى درجة تقلق راحته وتهدد وجوده. «إن العلم المادي ـ كما يقول (الكسيس كاريل) ـ اهتم إلى حد بعيد بتنمية الخصائص الكمية للإنسان، ولكنه أهمل بنفس العمق خصائصه النوعية، ولقد أدى فهم العلم المادي الذي استأثر باهتمام وإرادة الإنسان بصفة مستمرة إلى نسيان العالم الروحي نسيانًا تامًّا». ولسنا في حاجة بعد هذه التصريحات إلى القول بأن الوحي وحده يضمن إعادة التوازن إلى المجتمع الإنساني، وإعادة بناء الإنسان، وإعادة الاعتبار لأبعاده الروحية والمعنوية والقيمية، والتخلص من الدمار الذي خلفته الآداب الصناعية.

إن القرآن يؤكد، كما أشار إلى ذلك الدكتور (عماد الدين خليل)، أن الله سبحانه ما خلق (معشر الجن والإنس) إلا (ليعبدوه)، وليس مفهوم العبادة هنا، مساحة ضيقة لا تتجاوز دائرة (الشعائرية) و (الاتصال الروحي) بالله. إنها (أي العبادة) تجربة حياة كاملة يتوازن فيها الأخذ بالعطاء، وتغدو أشبه بالبرنامج الشامل الذي ينظم فاعليات الجماعة البشرية في الأرض، ويمنحها معنى، ويسير بها إلى هدف واضح مرسوم. والإسلام يمنح التجربة الحضارية طابعها الخاص، ويعطيها الدافع والمبرر، وينفخ فيها روح الإبداع والابتكار والتطور الدائم الفعال، كما أنه يتجاوز بها السفوح الدنيا للنشاط البشري، إلى القيم التي تليق بمكانة البشرية في ساحة العالم، وبهذا تسقط، ابتداء، كافة السلبيات التي يمكن أن تعلق بأي نشاط

حضاري لا يعتمد برنامجا شاملا، ولا يسعى إلى هدف واضح، ولا يلتزم أخلاقية الإنسان في حواره مع خالقه.

إن تأسيس الإيمان على العقل، وتقريب الوحي من الفلسفة، كان دائما حاجة بشرية إنسانية عميقة، يريد بها الفيلسوف أو المتكلم إعادة التوازن لدى الكائن الإنساني من خلال خلق الانسجام بين أشواق الروح كما جاء بها الوحي، وبين مطالب العقل كما قعدتها الفلسفة. وإن الانحرافات التي مرت بها الحضارة الإسلامية بعد عصر الازدهار، والتي أساءت إلى مسيرتها الثقافية والحضارية، مثل انفصال الروح عن العقل، والضمير عن العلم، والعقل عن النقل، والفكر عن السياسة، خلقت تمزقا في الشخصية الثقافية والحضارية، وفقدانا لتوازنها وتماسكها، فظهرت أمراض لا أول لها ولا آخر.

إن واجب العلماء والمصلحين والمفكرين والساسة، وفق تعبير الدكتور (نورالدين الخادمي)، هو إصلاح العقول قبل إصلاح الأعمال، وتغيير الأفهام قبل تشريع الأحكام، حتى تتهيأ العقلية العامة لقبول دين الله تعالى على أنه نظام شامل وواقعي، وإنساني ومتوازن، وباقٍ إلى يوم القيامة، وليس كونه دينًا يخاطب الروح على حساب الجسد، أو العائلة على حساب الدولة، أو التعبّد على حساب التقنين والتشريع.

والتربية تسعى - كما يقول الدكتور حامد عمار- لإقامة مجموعة من التوازنات شبه المستحيلة، بين العالمي والمحلي، والروحي والمادي، والكلي والخصوصي، والتقاليد والحداثة، والمدى القصير والمدى الطويل، والحاجة للتنافس

وتكافؤ الفرص، والتوسع في المعارف والقدرة على استيعابها. إن التربية المتوازنة لإنسان متوازن ما زالت هي الأصعب، والمطلوب إنسان تتوزان أشواقه الروحية ونزعته العقلية، وعواطفه وغرائزه، مع توجهاته الدنيوية، وأشواقه الروحية، وتتصالح هذه التوجهات ولا تتحارب، هذا الإنسان هو المطلوب اليوم وغداً، والحاجة له تفوق حاجتنا لصواريخ ذكية أو غبية، قبل أن يفلت الزمام، فتتحول الأرض إلى كرة لهب، أو فرن ذري يشوي الجميع بلا استثناء.

غِذَاءُ الرُّوحِ
أَنْتَ مَا تَتَغَذَّى عَلَيه

قال حكيم لحفيده: اليوم سوف أخبرك عن حقيقة من حقائق الحياة. فقال له الحفيد: أسمعك يا جدي. فقال الجد: في كل شخص تدور معركة، هي أشبه بمعركة بين ذئبين... أحد الذئبين يمثل الشر (الحسد، الغيرة، الأنانية، الكذب...). هز الحفيد رأسه وقال: والآخر؟ فقال الجد الحكيم: والآخر يمثل الخير (السلام، الحب، الحقيقة، والإخلاص...).

تأثر الحفيد بهذه الكلمات وفهمها، وبعد تفكير سأل جده: في النهاية أي الذئبين سينتصر على الآخر؟ ابتسم الجد وقال: دائما ينتصر ذلك الذئب، الذي أنت (تطعمه وتغذيه).

والعبرة التي يمكن أن نستقيها من هذه الأقصوصة القصيرة، هي طبيعة المسؤولية التي تقع على عاتق الإنسان، في كونه هو الذي يمد طرفي الصراع، بما به يستمر الصراع في داخله، ففي داخل كل منا طرف شرير وآخر خيِّر، ومن يرعى الطرف الشرير ويغذيه يجعله أقوى، وتصبح له السيطرة والغلبة، وعندها يصبح جانب الشر متغلب على جانب الخير في الإنسان، وسيحدث العكس أن غذِّي وقوي جانب الخير، فستصبح لهذا الجانب القوة والغلبة، وعندها سينتصر جانب الخير في داخل الإنسان! وسينعكس ذلك الخير في حياته وفي علاقته مع من حوله وما حوله.

والجسم الإنساني أرضي سفلي ترابي طيني، ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ {الصَّفات:١١} ، والروح سماوية علوية نورانية،﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ {الحجر:٢٩} ،

وكل منهما يستمد غذاءه من أصله الذي نشأ منه ومن مصدره الذي جاء منه، فالجسم غذاؤه من الأرض، أما الروح فغذاؤها علوي سماوي، وعندما ينفصلان بالوفاة يعود كل منهما إلى أصله ومصدره، فالجسم يعود إلى التراب﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ {طه:٥٥} ، فالجسم من الأرض وفيها وإليها يعود، أما الروح فتعود إلى مصدرها العلوي الرباني ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ {الزُّمر:٤٢} وأي محاولة لتغذية هذا الجانب أو ذلك من غير أصله ومصدره الذي جاء منه حكم عليه بالضعف إن لم يكن بالموت.

ودعني أقبس لك بعض أبيات لأبي إسحاق الألبيري ينصح فيها ابنه أبا بكر ويوصيه فيها بطلب العلم، وهي من غرر القصائد، وفيها من درر النصائح الشيء الكثير، وهي تشبه لامية ابن الوردي وتلتقي معها في بعض النصائح، وسأقتصر فيما أقبس منها (قصيدة الألبيري)، على ما له علاقة بهذا السياق، تاركا المجال مفتوحا لمن يحب أن يطلع على القصيدة بكاملها:

فقوت الروح أرواح المعاني

وليس بأن طعمت وإن شربتَ

فليست هذه الدنيا بشيء

تسوؤك حقبة وتسر وقتا

وغايتها إذا فكرت فيها

كفيئك أو كحلمك إن حلمتَ

سُجنت بها وأنت لها محبٌ

فكيف تحب ما فيه سُجنتَ

وتطعمك الطعام وعن قريب

ستطعم منك ما منها طعمتَ

والإسلام حينما يهتم بتربية الجسد بالغذاء فهو يعطيه إياه بالقدر المضبوط الذي لا يضعفه ولا يتخمه، وهو حين يهتم بالرياضة يحددها في الإطار الذي لا يلهيه ولا يغويه، ولا يفسده بالتربية العسكرية الصارمة، بل يجعله يقبل عليها حماية لدينه وأمته، لا استعلاء على الناس أو تجبرا في الأرض، وهو حينما يؤكد عليه للقيام بالعبادة، كغذاء للروح، يؤكد على ذلك القدر اللازم لصلاح أمره، دون رهبانية وانقطاع عن الحياة أو انشغال بأمور الدنيا عن الآخرة، وحينما يهتم بالعمل الجاد الصالح يؤكد عليه دون مبالغة مهلكة، أو كسل مفسد، وحين يهتم بالجسد إذا مرض يوصي بالعلاج الناجح، دون مبالغة أو تفريط، وهذا الجانب من التوازن وضحناه أكثر في المقالات السابقة.

وكما نعترف بغذاء الجسد واحتياجاته، فإن من واجبنا أن نعترف بنداء الروح وغذائه واحتياجاتها، وكل ما يخدم المعرفة الروحية في مجالها، ومن الواجب علينا أن نسعى لتبسيطها وإنزالها من عليائها وبيان النافع منها والضار، وتوضيح الرباط المتين بينها وبين علم الثقافة، فإن مثل هذا هو من صميم خدمة المعرفة والعلم باعتبارها تشكل مصدرا هاما من مصادر العلم والمعرفة.

وقد خلق الله في كل إنسان ثلاث أوانٍ (أوعية) أساسية وهي: الدماغ، والقلب، والمعدة. فالدماغ آنية العقل والعلم، والقلب آنية الإيمان والتوحيد، والمعدة آنية الطعام والشراب، ولكل آنية غذاؤها، ولكل غذاء ثمرته. فالقلب محل الإيمان والتصديق، واليقين والتعظيم لرب العالمين، والخوف منه، والتوكل عليه، ومحبته والأنس به، ومعرفته، والانقياد له، والتسليم له سبحانه. ولذا صار القلب محل نظر الله من العبد، كما قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: «إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» أخرجه مسلم.

وكلما كانت نوعية الغذاء مناسبة وصحية وكافية لكل إناء انعكس ذلك على الروح فأشرقت وسمت، وكلما كانت نوعية الغذاء فاسدة وغير مناسبة وغير كافية، أو تم تغذية جانب على حساب جانب آخر، كلما أظلمت الروح وانتكست، فنوع الطعام يخلق نفسية الإنسان، ونظام الامتناع عن الطعام يكوّن نفسية الإنسان، وكلما كان نظام التغذية ذا أثر محوري في النفس انعكس ذلك على بقية أعضاء الجسم ومَلَكاته، وهذا يمكن فهمه على شكلين، وفق تعبير الدكتور (خالص جلبي): الأول بخصوصية في الغذاء، والثاني ليس بتغيير الخصوصية كاعتماد المزيد من البروتين أو الدهون أو النشويات، ولكن باعتماد التوقف الكامل والكلي عن كل أنواع الطعام، فهذا يطبع النفسية ببصمة خاصة سواء اعتمد على أنواع بعينها من الطعام، أو حجز النفس عن كل لون من الطعام على الإطلاق في قانون ثنائي، وهذا ما يقوم به الصيام في حياة الإنسان.

والأغذية الفاسدة تفسد العضو الذي وجهت له ومن ثم ينعكس ذلك على

بقية أعضاء الجسم و ملَكاته، فالمأكل والمشرب الحرام يورد صاحبه المهالك، كما في حديث النبي- صلى الله عليه وسلم-: (أيّما جسم نبت من حرام فالنار أولى به)، وطعام العقل الفاسد كالشبهات، يفعل فعله، فيسمم العقل ويمرض الجسم، وطعام القلب الفاسد كالشهوات، يزلزل كيان الإنسان، فتسري العلل في الجسم بكامله، ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ {آل عمران:٧} : ﴿وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ {النساء:٢٧} ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ {مريم:٥٩}.

ومن يتأمل في كلام الله وأحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم- في هذا السياق، يجد أن تأثير الغذاء الفاسد يؤثر على العضو أو المَلَكة نفسها وينعكس على بقية الجسم، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فإذا أصبحت مَلَكات الإنسان وأعضاؤه مريضة فلن ينفعه بعد ذلك حتى الغذاء السليم، فالرئة المريضة تستنشق الهواء النقي، فتحوله إلى سعال، وتهضم المعدة السقيمة الغذاء الشهي الغني فتحوله إلى مرض، ويتلقى العقل المخبول الكلمة المضيئة والحكمة المترعة، فيحولها إلى هذيان، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ {التوبة:١٢٥} .

ومنْ يكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مريضٍ

يَجِدْ مُرًّا به الماءَ الزُّلالا

إن هذا القلب البشري يحتاج إلى أدوية وأغذية، وفي الصلاة دواء وغذاء، وفي الصيام دواء وغذاء، وفي الذكر دواء وغذاء، وفي صلة الأرحام دواء وغذاء، وفي العلم دواء وغذاء. والعلم غذاء العقول، والذكر غذاء القلوب، والعمل الصالح ثمرتهما. والعلم بدون الجهد يورث الجدل، والعلم مع الجهد يورث العمل الصالح، كما يورث الخشية في القلب.

صحيح أن الله هو الذي يهب الطيور غذاءها، ولكن لا بد لها أن تطير وتصل إليه لتستمتع بلذة تناوله. والفيتامينات التي يتناولها الإنسان في أقراص لن يستفيد منها جسمه، كما قد يستفيد من الغذاء الحي، الذي يهضمه، ويمثله، ويتعامل معه.

ومن الأقوال الشائعة قولهم: (إنك ما تأكل)، بمعنى آخر، إن نظام غذاء المرء يؤثر بشكل كبير على صحته الجسدية والنفسية والروحية. والمسلم بدوره قد يطور هذه المقولة إلى حقيقتين بدهيتين، وفق تعبير المفكر الأمريكي المسلم (جيفري لانج) هما: إن ما تعمله في هذه الحياة يحدد نوعك بصفتك شخصا، وفي اليوم الآخر، يوم البعث، تكون حسب ما تقوم به من عمل الآن.

إن الفطرة لا تستقيم ولا تتوازن إلا حين تهذب الخطوط كلها في ذات الوقت، وتغذى بالغذاء الصالح السليم. والبوارق الفكرية الصادقة، واللوامع الذهنية المشرقة، والخوالج الحسية الصافية الدافقة؛ هي المدد النفيس للمعنى الأصيل في

الإنسان، تمنحه غذاءه، وضياءه، وأسباب تفوقه.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في معنى كلامه: إن الجسم إذا أخذ حاجته من الغذاء ولو كان مؤذيا زهد في الغذاء الطيب لأنه اكتفى وشبع... وهكذا النفس إن تعودت سماع الهابط من الفن أو بالغت في سماع المباح منه، والذي سماه القرآن (لهو الحديث)، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ {لقمان:٦} ، لم يكن لها تأثر بالقرآن لأنها أخذت بنصيبها وشبعت من السماع السابق فزهدت في القرآن، وهذا من قلة التوفيق الذي يعتري الإنسان، ويصيب روحه بالهزال والضعف لاستبداله غذاء طيبا بما هو أقل منه درجة، ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ {البقرة:٦١}

ومن وظائف الغذاء في الجسم الإنساني أربع: البناء، توليد الطاقة، ودعم المناعة، وبقاء النوع، كما هو مشهور عند أهل الطب والتغذية. ولكي يتم تزويد الجسم بالغذاء على الوجه الأكمل، فإنه يجب أن يشكل البروتين نحوا من ١٥-١٨٪ من غذائنا، والدهون ٣٠٪، والسكريات والنشويات من ٢٥ -٥٥٪، بالإضافة إلى بعض المعادن والفيتامينات، والخلل في هذه النسب يسبب أضرارا للجسد على المدى البعيد.

وبالمقابل فإن الروح في حاجة ماسة إلى مثل هذه التوازنات، وإن لم تكن بدقة النسب المذكورة في غذاء الجسم، بل كما سماها الرسول- صلى الله عليه وسلم -فيما يروى عنه وهناك من ضعفه: (روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة،

فإن القلوب إذا كلّت عميت)، وقد زار سلمان الفارسي -رضي الله عنه- أخاه أبا الدرداء - رضي الله عنه- فما وجده، لكنه وجد زوجته أم الدرداء وهي متبذِّلة -أي تلبس ملابس العمل- فسألها عن شأنها، فقالت: أخوك أبو الدرداء ليس له بنا حاجة في الدنيا (بمعنى أنها تشكوه لتقصيره في حقها)، فجاء أبو الدرداء، وقدَّم لهما الطعام، فقال سلمان لأبي الدرداء: كُل، قال: فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم (يعني قيام الليل)، قال: نَم، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نَم، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نَم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قُم الآن، فَصَلَّيَا. فقال له سلمان: «إن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعطِ كل ذي حق حقّه»، فأتى أبو الدرداء النبيَّ - صلى الله عليه وسلم - فذكر ذلك له. فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «صدق سلمان». رواه البخاري. وفي هذا الحديث دلالة واضحة على أن أي ميل إلى تغذية جانب سينعكس سلبا على الجوانب الأخرى، حتى وإن كان هذا الجانب مهما جدا وغذي بالغذاء السليم، إلا أن هذه التغذية كانت على حساب الجوانب الأخرى، واقتطاعا من حصتها.

وليس الدور المنوط بالطبيعة من حولنا هو توفير الغذاء والمأوى لأجسادنا فحسب، بل أيضا وقبل كل شيء لتغذية أرواحنا، فالتفكر في بديع ما خلق الله فيها، والتأمل في صنع الله المحكم في مكوناتها، يغذي الروح ويجعلها أكثر شفافية، فتلهج بالتسبيح لخالق هذا الكون العظيم: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ(١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا

وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(١٩١) ﴾. {آل عمران: ١٩٠-١٩١}.

حتى الأفكار التي نؤمن بها ونسعى لنشرها تتغذى على أرواحنا، أو بمعنى آخر تأخذ مصدر حياتها وبقائها من أرواحنا، وهذا هو ما قال به الشيخ الخضر بن حليس: «كل فكرة عاشت قد اقتاتت قلب إنسان وروحه، أما الأفكار التي لم تطعم هذا الغذاء المقدس فقد ولدت ميتة، ولن تدفع بالبشرية شبرا واحدا إلى الأمام». وهذا هو ما زرع القبول والانتشار لما جاء به الحبيب - صلى الله عليه وسلم - من الكتاب والحكمة في القلوب والعقول والأرواح، لأن ما جاء به كان مغروسا في قلبه وروحه، فكان كالشجرة التي قال الله عنها: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ {إبراهيم:٢٤} .

ويحدثنا المفكر العربي الكبير (عباس العقاد) عن نوعية الغذاء الفكري الذي كان يتناوله، وكيف استفاد منه وأفاد، فيقول: « الكتب طعام الفكر، وتوجد أطعمة لكل فكر، كما توجد أطعمة لكل بنية، ومن مزايا البنية القوية أنها تستخرج الغذاء لنفسها من كل طعام، وكذلك القوي الذي يستطيع أن يجد غذاء فكريا في كل موضوع».

والقرآن يوجهنا إلى خير الزاد الذي يغذيالروح فيقول: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي

الأَلْبَابِ﴾ {البقرة:١٩٧}، ويدلنا على أفضل لباس يمكن أن نكسو به أرواحنا فيقول: ﴿**وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ**﴾ {الأعراف:٢٦} ، بل يدعونا إلى ما به حياة أرواحنا إن كنا نريد لها الحياة الحقيقية فيقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾ {الأنفال:٢٤} ، ومن كان حيا في هذه الحياة الدنيا باستجابته لله ورسوله فستكون منزلته ومكانته عند ربه في ذلك اليوم العظيم هي الحياة الأبدية العليا، ﴿**وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ {العنكبوت:٦٤}.

بَعدَ نَفخِ الرُّوحِ
كانَ سُجودُ التَّكريمِ

الله جل جلاله ما أمر الملائكة أن تسجد لآدم عليه السلام بمجرد أن خلقه من (طين)، وإنما بعد أن نفخ فيه من (روحه)، فالقيمة إذن في كيان الإنسان لم تنشأ من الوجود الجسدي والأصل المادي، وإنما نشأت حين تمت نفخة الروح بقبضة الطين، فغيرت طبيعتها وتميزت بالمعرفة، والإدراك، والإرادة، والاختيار، ولم يعد فيها ما كان فيها من قبل من صفاقة وعتامة وانطماس.

ورغم أهمية وجوهرية هذه النفخة الربانية، إلا أننا لا نستطيع أن نحدد ماهيتها وكينونتها لأنها: ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ {الإسراء:٨٥} ، ومع ذلك فهي السر العجيب في هذا الكائن، وهي روح الحياة فيه، وبدونها يفقد كل الصفات التي تجعل منه إنسانا، فبمجرد انفصالها عنه يصبح (جثة) أو (جنازة)، حتى اسم صاحبها الذي كان يدعى به يتوقف ترديده على ألسنة حتى أقرب المقربين إليه، وعندما تعود الروح إلى باريها ويسترد الله سره ووديعته من الإنسان، يصبح مصير الجثة هي العودة إلى الطين مرة أخرى، وكأن الجسد هنا يشبه الوعاء الذي يستقبل الروح، فإذا خرجت الروح بقي الوعاء بلا فائدة ترجى، ولذلك يتكرم الأحياء عليه بوضعه في التراب، لتنتهي بذلك مسيرته الحياتية ويغلق ملفه إلا مما ترك من الخير الذي يتواصل بعد مماته.

وفي النظرة التوحيدية يظهر جلياً أنّ جانبها الإنساني يقرر مجموعة من الحقائق، أولها أنّ الإنسان كائن مكرم، وغفلته عن تلك الميزة يوقعه في حضيض التفاهة المتعلّقة أساساً في تغليب الجانب الأرضي منه على الجانب السماوي أو الروحاني، بمعنى أن الإنسان إذا نسي تكريمه وقع تحت طائلة الغرائز وسلطانها،

وبهذا يتم تغييب أصل ما جعلت له تلك الغرائز والأشواق، فينتقل الإنسان من طور الإنسانية إلى طور البهيمية الضارية المفترسة.

وحين ينحط الإنسان يتحول عن عبادته لربه إلى عبادته لذاته وشهواته، وتسود علاقته بالآخرين القوة بدل الرحمة، والتعانف بدل التراحم، وينصرف عن العناية بالروح إلى العناية بالجسد، وعن الاهتمام بالمبدأ إلى الاهتمام بالمصلحة، ويتحول المجتمع كله إلى غابة يحس كل واحد فيها أن من حقه افتراس الآخرين، كما أنه من الممكن أن يكون فريسة لأي واحد منهم (آكل اليوم ومأكول غدا)، وفق تعبير أ. د. عبد الكريم بكار.

ولعل ازدواج فطرة الإنسان وتشكلها من شهوات النفس وأشواق الروح، هي التي رشحته لمقام الاستخلاف في الأرض، لأنه - بهذا الجهاد المستمر يصبح مناضلاً - قوي الإرادة ثقيل العبء، جسيم التبعية، محتشدًا دائمًا وأبدًا ضد شهوات نفسه الأمارة، يتحداها لينتصر عليها، فيصبح أهلاً لتحمل الأمانة وأهلاً للاستخلاف في الأرض.

وفضلا عن ذلك فإن الخير والشر يصبحان مفهومين واضحين محددين لا يلتبسان ولا يحار فيهما الإنسان، فالإنسان يكون شريرا حين يحكم الجسد مزاجه، وخيّرا حين تحكم الروح هذا المزاج. وتمتع الإنسان بالعنصر الروحي والإرادة الحرة، وتمتعه بالقدرة على الموازنة بين العاجل والآجل ... يجعله يتحكم بغرائزه على نحو لا يعرفه عالم الحيوان.

والصراع الخيِّر يقاوم في داخل النفس رغباتها المنحرفة، وميلها إلى الشر، وسعيها إلى الفساد، والنفس لا بد لها من توجيه دائم وتقويم، وإلا فإنها إن تركت وشأنها هبطت بها ثقلة الطين، وانفصلت عن إشراقة الروح ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ {العنكبوت:٦٩} .

العُزْلَةُ المُؤَقَّتَةُ الوَاعِيَةُ
لَمَلَمَةٌ لِشَتَاتِ الرُّوحِ

إن في القلب شعثا، لا يلمه إلا الإقبال على الله، وعليه وحشة، لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن، لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق، لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه، وفيه نيران حسرات، لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه طلب شديد، لا يقف دون أن يكون هو وحده المطلوب، وفيه فاقة، لا يسدها الا محبته ودوام ذكره والاخلاص له، ولو أعطى الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدا!! هكذا يقول ابن القيم الجوزية في كتابه عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين.

إن اعتزال الناس بين الفينة والفنية يصقل الروح، ويجدد الرواء، ومن يفعل ذلك فربما يكون في وقت عزلته في خدمة الناس أكثر مما لو اختلط بهم، ومن الملاحظ أن الناس حين يصيبهم كرب أو أزمة فإنهم كثيرا ما يلجؤون إلى أولئك المحتشمين ينشدون لديهم الرأي والتعاطف والعون.

لقد كان عليه الصلاة والسلام قبل الوحي الذي نزل عليه يتبتل ويتعبد في غار حراء مطلِقا روحه للتأمل والتفكر في بدائع خلق الله وآياته الكونية، صارفا قلبه عن متاع الحياة ومشاغل الوجود، ليتفرغ بقلبه وعواطفه للمناجاة والعبادة وتلمس المعرفة، حتى كانت العرب تقول: إن محمدا عشق ربه.

ونحن نستطيع أن نقول إن الإعداد الإلهي للأنبياء، تخلية لهم من عوائق الروح وأعلاق المادة، كان يُلهَم الأنبياء إلى نوع من العزلة والمجاهدة قبل إرسالهم من الله، حتى يوضع الوحي الكريم في إناء نقي نظيف، لا أن يوضع في قلب

مشـوش، أو عقـل منحـرف، أو جسـد مبتـذل. وفـق تعبـير الأسـتاذة هيـام الملقـي. «ثـم حُبِّـب إليـه الخـلاء»، ويـشرح الإمـام النـووي مـا تحدثـت بشـأنه أم المؤمنـين عائشـة فيقـول: «أمـا الخـلاء فهـو الخلـوة، وهـي شـأن الصالحـين وعبـاد اللـه العارفـين، لقـد حُبِّبَـتْ إليـه العزلـة - صـلى اللـه عليـه وسـلم - لأن معهـا فـراغ القلـب، وهـي معينـة عـلى التفكـر، وبهـا ينقطـع عـن مألوفـات البـشر، ويتخشـع قلبـه».

وفي (الرحيـق المختـوم) للمباركفـوري، أن اختيـار المعصـوم لهـذه العزلـة إنمـا هـو مـن تدبـير اللـه لـه، وليُعِـدّه لمـا ينتظـره مـن الأمـر العظيـم، ولا بـد لأيّ روح - يُـراد لهـا أن تؤثّـر في واقـع الحيـاة البشريـة فتحوّلهـا وجهـة أخـرى- مـن خلـوة وعزلـة بعـض الوقـت، وانقطـاع عـن شـواغل الأرض وضجـة الحيـاة وهمـوم النـاس الصغـيرة.

العيـش مـع النفـس ليـس وحِـدة، العزلـة غـير الوحِـدة، وقـد قـال أحـد مفكـري الغـرب (جـان بـول سـارتر) مشـيرا إلى طبيعـة الوحـدة وانفـراد الإنسـان بذاتـه ومـا يترتـب عـلى ذلـك: «إذا شـعرت بالوحـدة وأنـت وحـدك فأنـت في رفقـة سـوء»؛ تـرى هـل أصبـت في فهمـي لمـا قالـه؟ هكـذا يتسـاءل الأسـتاذ أسـعد طـه. وعـلى كل حـال؛ كلمـا كان العقـل أكـثر قـوة وأصالـة، زاد ميلـه إلى العزلـة الواعيـة، ففـي العزلـة الواعيـة يـزداد نشـاط التفكـير، ويعمـل العقـل بأقـصى طاقتـه.

وقـدرة الإنسـان عـلى التـصرف بأحوالـه النفسـية أكـبر بكثـير مـن قدرتـه عـلى التـصرف بأحـوال جسـمه. وإن شـدة الاختـلاط بالنـاس، تسـتهلك الشـخصية، وتسـتنفد الطاقـة الفكريـة والنفسـية للمـرء، ولـذا فهـو محتـاج إلى نـوع مـن التـوازن في الخلطـة والعزلـة، لكيـلا يسـتنزف طاقتـه في الاختـلاط بالآخريـن، ولا ينعـزل إلى درجـة أن يصبـح

على هامش المجتمع.

ولعلنا هنا، يمكن أن نفهم، أو ندرك أهمية النصوص الشرعية، التي تدعو للانفلات من حالة الركود، والتوارث الاجتماعي، واعتزال المجتمع، والانسحاب من الواقع... وهذا الخروج وهذه العزلة، لا تعني الهروب من المسؤولية، بمقدار ما تعني محاولة إعادة بناء النفس وترتيب أوراقها، بعيدًا عن الأمراض الاجتماعية، والتحقق بالسلامة، ليعود المسلم، وهو أقدر على الإسهام بعملية العلاج، والنهوض من جديد.

ولئن كان عزل المريض، والحجر عليه، هو المطلوب في الحالات الطبيعية، حتى لا تنتقل العدوى للأصحاء، فيحق لنا أن نقول هنا، بعد هذه الرحلة من الإحباطات، وحمل الكثير من الأمراض الاجتماعية نفسها، التي يعيشها الآخرون، إنه: لا بد من عزل السليم، عزل الأصحاء، حتى لا تنتقل لهم العدوى، بعد شيوع المرض، لإعادة التزود، والعودة إلى الحل الإيجابي، وليس الحل السلبي الانسحابي، لما تعانيه الأمة، وندرك في ضوء ذلك، مدلول ومقاصد الأحاديث، والآيات، التي ترغّب في العزلة الواعية، وتعتبرها وسيلة النجاة للإنسان في لملمة شتات ذاته، ليعود إلى مجتمعه أكثر تماسكا وقوة.

وقد تفاعل أحد الأصدقاء الأعزاء، وهو الدكتور معاذ الحسني، مع ما تم طرحه في مقال الأمس، وأرسل لي هذا التعليق، حيث شبه حال الإنسان في العزلة الواعية المؤقتة بحال الشجرة، وسأورد تعليقه كاملا لما يحمل من دلالات، وقد بدأ تعليقه بهذا السؤال: هل يمكن تشبيه فاعلية العزلة للذات بفاعلية الماء

للشجرة؟ وقد كانت إجابته على السؤال على النحو الآتي:

الماء ينزل إلى الأعماق لتتشربه الجذور، وفي الوقت نفسه تنطلق الشجرة إلى الأعالي فيفيد منها الآخرون، من ثمراتها أو ظلها، وكذلك العزلة تفيد الداخل وبالذات أولا، ويعود أثرها على العالم الخارجي ثانيا، فيفيد الناس من صاحبها. ليس الغاية من الماء أن ترتوي الجذور فقط، بل لتأخذ الشجرة طريقها في العلو والامتداد، فيفيد الناس منها، وكذلك العزلة يرتوي بها الداخل، وليس هذا منتهى غايتها، وإنما ليمتد أثرها إلى الخارج فيفيد الناس منك.

تظل الشجرة حيةً وفاعلةً وتؤتي أكلها، حتى إذا أصابها الضمور، تم إرواؤها بالماء لتكون هذه محطة تزود ثم تعاود العطاء، وكذلك أنت تظل حيًّا وفاعلاً، حتى إذا شعرت بالضمور والقسوة لطول الخُلطة، تم إرواء الذات من خلال العزلة لتكون هذه العزلة محطة تزود لتعاود الانطلاق في رحلة من العطاء والإفادة.

لا تحتاج الشجرة الى الري الدائم، بل قد تفسد إذا ظل الماء ملازمًا لها، ولذا فإنها تروى على فترات متقطعة متباعدة نوعا ما، وكذلك أنت لا تحتاج إلى العزلة الدائمة، بل ربما تفسدك هذه العزلة، وإنما تكون هذه العزلة على فترات متقطعة. هذه أوجه التشابه في الغاية والفاعلية بين الإنسان في حالة العزلة وبين الشجرة في حاجتها إلى الماء.

يقول ابن حجر متحدثا عن العلامة ابن القيم الجوزية، وفي رواية عن أستاذه شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكان إذا صلى الصبح جلس مكانه يذكر الله حتى يتعالى النهار، ويقول: (هذه غدوتي لو لم أقعدها سقطت قواي). لقد أنهمك

في ذكـر اللـه الـذي لا يعتـبر اسـتحضاراً لغائـب، كـما يقـول الشـيخ محمـد الغـزالي، «إنمـا هـو حضـورك أنـت مـن غيبـة، وإفاقتـك أنـت مـن غفلـة». وأضـع أمـام عينـيَّ قـول ابـن عطـاء اللـه السـكندري: «ولا يـزال الذاكـر يـوالي الذكـر بلسـانه، ويتكلـف إحضـار القلـب معـه، إذ القلـب يحتـاج إلى موافقتـه حتـى يحـضر مـع الذكـر، ولـو تُـرك وطبعـه لاسترسـل في أوديـة الأفـكار، إلى أن يشـارك القلـبُ اللسـانَ، ويحـرق نـورُ القلـب الشـهوات والشـياطين». وعنـد ذلـك لا يصبـح اللسـان رطبـا بذكـر اللـه فحسـب، بـل يتواطـأ معـه القلـب، وعندهـا تصفـو الـروح وتسـمو.

إن كُنتَ لستَ مَعِي، فالذِّكرُ مِنكَ مَعي
يَـراكَ قلبي وَإن غُيِّبت عَن بَصَري
العَينُ تبصِرُ مَـن تهـوى وتفـقِدُهُ
وَناظِـرُ القلبِ لا يَخلو مِنَ النظر

إن الخلـوة فكـر، والجلـوة ذكـر، ومـن ظـن أن بلـوغ مـاء مديـن يكـون بغـير سـفر فهـو واهـم. في العزلـة تُخـرِج الذاكـرة مـا لديهـا، هكـذا فجـأة، كأن قفـلاً كان يغلـق بابهـا عنـوة ثـم انكـسر، تتذكـر كل الأيـام الحلـوة، وحتـى تلـك الأيـام التـي كنـت تعتبرهـا عاديـة، كنـت تحمـد اللـه في المناسـبات، اليـوم نجحـت، اليـوم رزقـت كـذا، اليـوم اعتليـت في وظيفتـي منصبـاً أعـلى، وهكـذا يتكـرر الحمـد في كل المناسـبات. في العزلـة تتذكـر أصغـر الأشـياء التـي كنـت تمـر بهـا ولا تعيرهـا اهتمامـاً، ولا تعتبرهـا تسـتوجب أن تقـف لتحمـد اللـه عليهـا، وفـق تعبـير الأسـتاذ أسـعد طـه، قبضـة ابنـك الـذي كنـت تـصرخ فيـه وأنـت تصحبـه إلى المدرسـة، نـداء زوجتـك وأنـت تغـادر

البيت أن تشتري كذا وكذا، كوب الشاي الذي كنت تتبرم من حامله في المقهى آخر شارعك، شكوى صديقك وأنتما تسيران في وسط البلد.

الآن في العزلة سنتعلم حمد الله على النعم الصغيرة التي باتت الآن عندنا كبيرة، حتى كوب الماء، حتى استيقاظك معافىً، حتى حذاؤك الذي ترتديه كل صباح، حتى الشجرة التي أمام بيتك، حتى المسكين الذي يسألك لقمة عيش، هذه وغيرها تحرك فيك عاطفة الامتنان والشكر لمسدي هذه النعم، فينفعل قلبك ويتحرك لسانك بالحمد لله.

وأي عاقل يدرك أن من المخلّ أن تمرّ العزلة دون إنجاز، أن ينحصر ما يتقنه الإنسان على فعل الانتظار، ربما أبدأ غداً، أو بعد غد، أو الأسبوع المقبل، أو خلال ثلاثة أسابيع، في عملية تسويفية لها أول وليس لها آخر، وفي غضون ذلك ينقضي شطر من حياتك دون أي جدوى، دون أي فائدة.

يقول (نيتشه) فيلسوف العدمية في كتابه (هكذا تكلم زرادشت): «إن العزلة ضرورية لاتساع الذات وامتلائها، فالعزلة تشفي أدواءها وتشدد عزائمها». أو كما قال (توماس مان) في (موت في فينيسيا): «تتيح العزلة المجال للأصالة أن تولد فينا، للجمال غير المألوف والمحفوف بالمخاطر أن يكون له حضور في حياتنا». وهذا الكلام لا غبار عليه، والعجيب أن يدركه غير المسلم بينما يغيب على الكثير من أبناء المسلمين.

التَّأمُّلُ
رِيَاضَةُ العَقْلِ
وَجَنَّةُ الرُّوحِ

لعل بعضكم قد سمع قبل عدة سنوات محاضرة للدكتور (عليّ القرني) بعنوان (دعوة للتأمل)، حيث حشد فيها الكثير من التأملات، التي تحرك القلب فيخشع، والعين فتدمع، واللسان فيلهج بالتسبيح والتهليل والتحميد لمن على العرش استوى، والتسجيل موجود على النت، وسأورد فقرة من هذا التسجيل في آخر هذا المقال.

ما هو التأمل؟ سؤال طرحه الأديب (حسين البرغوثي) على نفسه، وأجاب عنه إجابة دقيقة غاية في العمق لمن لديه القدرة على تأمل هذه الإجابة، فقال: «أن تتأمل نفسك يعني أن (تفهم) ما كنت (تعرفه) دائما من غير أن تفهمه». بمعنى آخر، أن هناك الكثير مما نعرفه ولكننا لا نفهمه على حقيقته، فيأتي التأمل لينقلنا من حالة المعرفة إلى حالة الفهم.

والتأمل جهد جواني (داخلي) للتعرف على الذات أولا، ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ {الذاريات:٢١} ، وعلى مكان الإنسان في العالم، ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ {فصّلت:٥٣} ، ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ {الذاريات:٢٠} ، وهو نشاط جد مختلف عن التعلم وعن التعليم، وجمع المعلومات عن الحقائق وعلاقاتها ببعضها، ويؤدي التأمل إلى الحكمة والكياسة والطمأنينة، وإلى نوع من التطهير الجواني، إنه تكريس النفس للأسرار والاستغراق في الذات للوصول إلى بعض الحقائق الدينية والأخلاقية والفنية.

يمنح التأملُ الإنسانَ قوة على النفس، أما العلم فإنه يعطي الانسان قوة

على الطبيعة، التعلم يواجه الطبيعة لمعرفتها ولتغيير ظروف الوجود فيها، ويطبق عليها العلم والملاحظة والتحليل والتقسيم والتجريب والاختبار، بينما يهتم التأمل ويعتني بالفهم الخالص، وهو ما أشار إليه البرغوثي في فقرة سابقة.

لقد اغتِيلت عند البعض منا روح الدهشة في تأمل العالم، كما يؤكد على ذلك الدكتور (خالص جلبي)، لأنه مع وأد روح الدهشة، تتوقف آلية الفضول، فيُقتل النمو وروح البحث العلمي عند الإنسان دفعة واحدة، وبالتالي تنتفي عنه لذة الجِدة في الحياة، التي تخلع على الحياة معنى، وتشحنها بالاستمرارية والنمو، وبكسب العادات العقلية الجديدة، التي تجعل الإنسان أكثر انفعالا بما حوله، وبعيدا عن حِس التبلد الذي صار ملازما للكثير منا.

الانسان في حاجة من وقت إلى آخر إلى الجلوس مع نفسه وترتيب أوراقه وأولوياته، ينفرد بأفكاره لتأملها وتحليلها، ولكن هذا الأمر أصبح صعبا في ظل الاتصال والتواصل المستمر، ولذلك صار المخ في حالة اتصال واستقبال دائم ولا توجد فرصة للتأمل والتحليل، وهذا يضيف على الإنسان عبئا جديدا، ويجعله يفكر في كيفية الانفكاك مما حوله من الملهيات التي تأخذ بتلابيبه وتصرفه عن الانفراد بنفسه وبأفكاره.

تأمل في الوجود بعين فكر

ترى الدنيا الدنيئة كالخيال

ومن فيها جميعًا سوف يفنى

ويبقى وجه ربك ذو الجلال

وعلى مدار التاريخ، أدرك الفطناء أن التأمل يغير حياة الإنسان، وأن التأمل كيمياءٌ من العلم والخبرة والعطاء الرباني. وأنه حجُّ العقل كما قال أحد التابعين. ويمكنني الآن أن أترككم مع الفقرة التي قبستها لكم من محاضرة القرني، لتقرؤوها بقلوبكم، وتتأملوا دلالاتها بأرواحكم، وعندها ستسبح ألسنتكم عن رضى واقتناع لعظيم ما قرأت.

«السماء بغير عمدٍ ترونها من رفعها؟ بالكواكب من زيَّنها؟ الجبال من نصبها؟ الأرض من سطحها وذلَّلها وقال ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ {الملك:١٥} ، الطبيب من أرداه، وقد كان يرجى بإذن ربه شفاه؟ المريض وقد يُئِس منه، من عافاه؟ الصحيح من بالمنايا رماه؟ البصير في الحفرة من أهواه؟ والأعمى في الزِّحام من يقود خُطَاه؟ الجنين في ظلماتٍ ثلاثٍ من يرعاه؟ الوليد من أبكاه؟ الثعبان من أحياه، والسُّم يملأ فاه؟! الشَّهد من حلاَّه؟ اللبن من بين فرث ودم من صفَّاه؟ الهواء تحسُّه الأيدي ولا تراه من أخفاه؟ النَّبت في الصحراء من أرْبَاه؟ البدر من أتمَّه وأسراه؟ النخل من شقَّ نواه؟ الجبل من أرساه؟ الصخر من فجَّر منه المياه؟ النهر من أجراه؟ البحر من أطغاه؟ الليل من حاك دُجَاه؟ الصُّبح من أسفره وصاغ ضحاه؟ النوم من جعله وفاة؟ واليقظة منه بعثًا وحياة؟!! العقل من منحه وأعطاه؟ النحل من هداه؟ الطير في جو السماء من أمسكه ورعاه؟ في أوكاره من غذَّاه ونمَّاه؟ الجبار من يقصمه؟ المظلوم من ينصره؟ المضطَّر من يجيبه؟ الملهوف من يغيثه؟ الضال من يهديه؟ الحيران من يرشده؟ العاري من يكسوه؟ الجائع من

يشبعه؟ الكسير من يجبره؟ الفقير من يغنيه؟ لا إله إلا الله».

علينا أن ندرك أهمية ابتعاد الإنسان، بين الحين والآخر عن صخب الحياة ومشكلاتها للاختلاء بالله عز وجل، وفق تأكيد الدكتورة (سعاد الناصر)، من أجل التأمل المثمر في ملكوته وملكه، وحمد نعمه، والغوص في أعماق النفس وتنظيم خلجاتها، والتفكير الهادئ في تجاربه الحياتية، وإعادة تقييم مواقفه وأفكاره وسلوكياته، والاستغفار منه تعالى عن ذنوبه وأخطائه، والاستعانة به من أجل شحن النفس بطاقات إيجابية تحفزها على الانطلاق في طريق الاستقامة والخير والحق والعدل، بدل التقوقع في السلبية والانهزامية، وتثبيت منظومة القيم والأخلاقيات، وتحويلها إلى ممارسات سلوكية، وعبادات حية، بدل التشتت والعادات الجامدة والشعارات الفارغة.

وقد كان صحابة النبي - صلى الله عليه وسلم - يتواصون، ويذكّر بعضهم بعضا بالقول: (هيا بنا نؤمن ساعة، فإن القلب أسرع تقلبًا من القدر إذا استجمعت غليانًا)، كلمات قالها عبد الله بن رواحة لأبي الدرداء رضي الله عنهما، وتشابهت مع ما قاله معاذ بن جبل رضي الله عنه لصاحبه وهو يذكّره: «اجلس بنا نؤمن ساعة». إنها (جلسة ساعة) يحضر فيها القلب، وتخشع فيها الحواس، ويتأمل فيها العقل، وتلملم فيها الروح شتاتها، وعندها يطمئن القلب، وتسكن الحواس، ويتيقن العقل، وتصفو الروح وتسمو.

والتأمل الإيجابي هو ديدن القرآن، فالقرآن الكريم لا يترك موضعًا في الوجود دون أن يثير انتباه الإنسان إليه؛ ليتأمل ويتفكر فيه، ويجعله موضع اهتمامه

وتدبـره. ولكـن التأمـل الـذي يدعـو إليـه القـرآن يختلـف عـن التأمـل الفلسـفي المجـرد عـن دليـل الوحـي، وهـو تأمـل لا يمتنـع أن ينتهـي بصاحبـه إلى الحـيرة والشـك وتحكيـم خيالـه وخطـرات نفسـه؛ ليخـرج عـلى النـاس بعـد ذلـك بمذهـب فلسـفي معـين تنقصـه المصداقيـة في أغلـب الأحـوال.

ومـا أجمـل الأبيـات التـي قالهـا أبـو نـواس وهـو يتأمـل (وردة النرجـس)، ليصـل مـن خلالهـا إلى توحيـد اللـه، وهـذا هـو الفـرق بـين التأمـل الـذي يرفـع مسـتوى الإيمـان واليقـين، والآخـر الـذي يبـذر بـذور الشـك والحـيرة والقلـق، فاللـه لـه في كل شيء آيـة، تـدل عـلى أنـه الواحـد، فيقـول في أبياتـه الثلاثـة الجميلـة:

تأمـل في نبات الأرض وانظر

إلى آثار ما صنع المليــكُ

عيـونٌ من لجـينٍ شاخصات

بأبصار هي الذهب السبيكُ

على قضب الزبرجد شاهدات

بأن الله ليـس له شريـكُ

إن التأمـل الـذي يدعـو إليـه القـرآن، وفـق تعبـير الدكتـور (محمـد إمزيـان) هـو: تأمـل إيجـابي هـادف، يجمـع بـين الحـس المرهـف والعقـل الواعـي والإيمـان الثابـت، يثـير مشـاعر الفطـرة في الإنسـان ويفتـح أمـام فهمـه أبـواب المجهـول، وينتهـي منـه إلى بـرد اليقـين، تأمُّلٌ يفتـح أبـواب العلـم والهـدى عـلى السـواء.

انظر لتلك الشجرة	ذات الغصون النضرة
كيف نمت من حبة	وكيف صارت شجرة
ابحث وقل من ذا الذي	يخرج منها الثمرة
ذاك هو الله الذي	أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة	وقدرة مقتدرة

يقول ابن القيم في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ {ق:٣٧} :«إن التأمل يفتح أبواب العلم والهدى، وبإهماله ينغلق باب العلم؛ لذلك أمر الله عباده أن يتدبروا آياته المتلوة المسموعة، والمرئية المشهودة، بما تكون تذكرة لمن كان له قلب، فإن من عَدِمَ القلب الواعي عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه، ولابد لحصول الانتفاع من النظر في آيات الله، من توفر ثلاثة أمور: سلامة القلب و صحته و قبوله، فإحضاره وجمعه ومنعه من الشرود والتفرق، فإلقاء السمع وإصغاؤه وإقباله على الذكر، هي الشروط الثلاثة التي تضمنتها الآية: (لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ) ، أي قلب واع؛ لأن من لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له، (أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ) ، وإلقاء السمع يعني الإصغاء الذي لا ينشغل عنه قلب بغير ما يسمع (وَهُوَ شَهِيدٌ)، أي حاضر بفطنته؛ لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب».

والتأمل لا يعني مجرد تحصيل المعرفة بالقراءة أو الحفظ، إنه مرتبة سامية تجاوز حدود القراءة العفوية لظاهر الأشياء إلى الغوص في أعماقها وتدبر غوامضها، ومن قل تأمله- كما قال الحارث المحاسبي ـ كثر جهله وبان نقصه، ولم يجد طعم

البرّ ولا برد اليقين ولا روح الحكمة، وما بلغ علمًا مَنْ درس العلم بلسانه، وحفظ حروفه بقلبه، وأضرب عن النظر والتذكر والتدبر لمعانيه، وطلب بيان حدوده، ما أقربه في حياته من حياة البهائم التي لا تعرف إلا ما باشرته حواسها. إن التأمل ضرورة لا غنى عنها، وليس التأمل دائما كما يتصوره البعض مجرد سبحات خيال، وإنما هو سياحة عقلية تنطلق من معطيات واقع صحيح، لتصل إلى ما به يرتقي حال الإنسان، وينتظم سيره إلى الله.

والعقل منحة إلهية أعطيها الإنسان ليتأمل بها في الكون والنفس، وفي الحياة والأحياء، وليفرق بنورها بين الحقائق والأباطيل وبين الثوابت والأوهام، حتى يصل من خلال نظراته وتأملاته إلى الإيمان الواثق بوجود الله، المبدع للكون، الخالق للأشياء.

والمتأمل فيما جاء في مواضع كثيرة من القرآن الكريم يجد أن هناك حثا متكررا على التأمل والتفكر والنظر وإعمال العقل، لا يمكن تفسيره إلا بأنه إيمان راسخ (وعهد) بأن شهادة الحواس والعقل لن تنقض إيمان الروح، ومن ثم، وعند نقطة ما، عند أفق ما، لن يكون هناك صراع بين العلم القائم على الملاحظة والدين القائم على الوحي، بل ويمكن لكل منهما أن يعزز الآخر. هذا الأفق هو ما أسميه (والكلام للمفكر المسلم (علي عزت بيجوفيتش) أفق الإسلام.

إن النظر في كون الله، وفي حركة التاريخ، وتأمل أسماء الله جل وعلا وصفاته، يرسل إلى القلب والعقل والروح في وقت واحد رسائل تمتلئ بالصفاء والوضوح والجمال... رسائل لا تملك أمامها الفطرة المغروسة في نفس الإنسان إلا أن

تستجيب لها وتشتاق إليها، لولا ما قد يغلِّف القلب من جهل وفساد.

إني لأتأمل (د. هبة رؤوف عزت) في مسارات الناس في دروب الحياة، فأجد بعضها يتوازى، وبعضها يتقاطع، وبعضها يفترق، لا يبقى أمر على حاله، ومن يبدأ مسيرته لا يعرف مآله، وأقدار الله نافذة، وحكمته قد تكون جلية، وقد تبقى خفية، العقل آلة والجسد دابة، والروح من أمر ربي.

التأمل هو العامل الأسمى لإدراك حقائق الكون، وبداية الطريق لتلمس أسراره. وعندما يسمو التأمل بصاحبه ويرتقي بنفسه يصل بالإنسان إلى درجة عالية من الصفاء تبلغ نوعا من السمو الروحي العجيب. والتأمل يمنح الإنسان البصيرة للمستقبل، وإذا لم نفكر في المستقبل فإننا نقوم بالبحث عن الماضي على الدوام. ومن تأمَّل أدرك ذلك بكل وضوح، لأن الحكمة هي التجربة مضافا إليها التأمل.

ويمكنني أن أنقل لكم تجربة ثرية لعقل عربي فذ، استطاع من خلال تأملاته التي لازمته طوال حياته أن يصل إلى بر الأمان، وأن يعرف الحقيقة في أنصع صورها، وسأتركه لينقل لكم تجربته بعباراته، حيث يقول (د. عبد الوهاب المسيري): «لازمني التأمل عبر حياتي، ولم يولد الإيمان داخلي إلا من خلال رحلة عقلية طويلة، ولذا فإيماني إيمان تأملي عقلي، لم تدخل عليه عناصر روحية (في البداية). فهو إيمان يستند إلى إحساس بعجز المقولات المادية عن تفسير ظاهرة الإنسان وإلى ضرورة اللجوء إلى مقولات فلسفية أكثر تركيبة. جعلني التأمل قادرا على الانفصال عما حولي وأن أنظر إلى نفسي من الخارج، الأمر الذي ولَّد فيَّ مقدرة

غير عادية على تغيير الذات بناء على تصورات عقلية مسبقة».

وتجربة أخرى جديرة بأن تساق في هذا الإطار، وهي تجربة المفكر المسلم (محمد أسد)، ففي تأمله لمغزى العبادة الإسلامية وجد محمد أسد أنها نظام بديع مركب من التزكية الروحية والتنظيم الاجتماعي: «إن الفكرة الإسلامية في العبادة لا تشمل الصلوات فحسب، بل تشمل الحياة كلها. أما هدفها فهو جمع ذاتنا الروحية وذاتنا المادية في كلٍ واحد». وبهذا يمكن القول: إن الذي لا يجد قلبه عند قراءة القرآن، أو لا يجد قلبه عند وقت الخلوة والتفكر، فليعلم أنه على خطر عظيم، فهو لم يصل بعد إلى أول الطريق، ويوشك من لم يعرف أول الطريق أن يضل.

وأثناء إعدادي للمقالات الثلاث التي تدور حول التأمل كرياضة للعقل وجنة للروح، لفت انتباهي وجود مصطلحين من عائلة التأمل أو من أبناء عمومته، وهما مصطلحا (التفكر والتدبر)، والتفكر غير التفكير والتدبر غير التدبير كما لا يخفاكم، فأحببت أن أعرِّج على هذين المصطلحين، حيث إن هذين المصطلحين يمتان بصلة قوية لمصطلح التأمل، وبينهما من التقارب ما لا يخفي على ذي لب، وسأبدأ من هذا المقال بالحديث عن التفكر.

التفكر محمدة عظيمة، وعدم التفكر مذمة شنيعة، وهو ما أكده قوله - صلى الله عليه وسلم -: (لا عبادة كالتفكر)، وما شرع التفكر على هذا النحو من التشديد إلا لأنه ينتهي فيما ينتهي إلى تكوين (عقل نبيه) قادر على إدراك الحقائق وراء الصور المشهودة، فكان ذلك توجيها يقصد فيما يقصد إلى حفظ

العقـل بالتفكـر. واللـه لم يـذم العقـل لذاتـه، ولكنـه ذم النفـس لذاتهـا، فـإذا ذكـر العقـل ذمَّ عـدم اسـتعماله وإعطائـه حقـه في التفكـر والتأمـل.

والملاحـظ أن المخ موجـود عنـد الإنسـان والحيـوان، وأن العقـل رفيـق أغلـب البـشر، ولكـن قلـة قليلـة مـن البـشر مـن يحسـنون اسـتعماله، وهـؤلاء هـم مـن يعرفـون قيمـة العقـل، ولذلـك اسـتخدموه بطريقـة توحـى بأنهـم أهـل لأن يبـارك اللـه لهـم في ثمـاره، فالعقـل لم يوجـده اللـه في الإنسـان ليسـتخدمه في تحصيـل المـأكل والمـشرب، فهـذا يتـأتى للحيوانـات بغـير عقـل، بـل مـن خـلال الغريـزة، ولكـن اللـه أوجـد العقـل لمهمـة أسـمى وغايـة أرقـى، يـأتي في مقدمـة هـذه الغايـات التفكـر. وفي التقليـد إبطـال منفعـة العقـل، وفـق تعبـير الإمـام ابـن الجـوزي في كتابـه تلبيـس إبليـس، لأنـه إنمـا خلـق للتفكـر والتأمـل والتدبـر، وقبيـح بمـن أعطـي شـمعة يسـتضيء بهـا، أن يطفئهـا، ويمـشي في الظلمـة!

والتفكـر الـذي ينفـع هـو الـذي يعطـي المعرفـة حجمهـا وقيمتهـا عنـد تناولـه لهـا، ويتـدرج في تأكيدهـا مـن جميـع جهاتهـا، وإذا لم يكـن كذلـك، فـإن التفكـر لا يزيـد المعلومـة إلا تأكيـدا ولـو كانـت خاطئـة. والنفـس كـما يقـول الأسـتاذ (عبـد العزيـز الطريفـي): «إن خلـت، أكـثرت التفكـر والتأمـل والمحاسـبة، فتتذكـر مـن التقصـير مـا لا تتذكـره في سـكرة متعتهـا».

وهنـاك الكثـير مـن الآيـات والأحاديـث التـي تحـث المسـلم عـلى التفكـر والتأمـل والتدبـر والاعتبـار في أحـوال الوجـود وسـير الأمـم السـالفة، وذلـك كلـه يسـتهدف إبعـاد الاعتباطيـة عـن حياتنـا، وتعميـق فهمنـا للسـنن الربانيـة في الخلـق، وجعـل وعينـا

يتمدد باستمرار إلى مواطن لم يتعرف عليها من قبل، وفق تعبير الدكتور (عبد الكريم بكار).

والتفكر يمر بثلاث مراحل، كما حددها الدكتور (مالك بدري)، هي: المرحلة (المعرفية) البدائية، ثم مرحلة (التذوق) لدقة الخلق وجماله، ثم مرحلة (العبور) بهذا التذوق لدقة الخلق وجماله إلى مبدعه جل وعلا، لذلك كلما ازداد إيمان الشخص وازدادت خشيته وحبه لله تعالى، ازداد تبعا لذلك عمق تفكره وتدبره في خلق السماوات والأرض. ولا غرابة أن تكون الألفة الشديدة والتعود عائقا للتفكر في الشيء وتدبره، فالتكرار الرتيب يفقد أعظم ظواهر هذا الكون روعتها وعظمتها، وإلا فكيف لا تهتز مشاعرنا لرؤية الشروق كل صباح بما فيه من الآيات البينات.

والخلاصة التي يمكن الخروج بها في الفروق الحاصلة بين (التأمل والتفكر والتدبر)، هي أن التأمل قد يكون بالبصر، مع استمرار وتأنٍّ يؤدي إلى استخلاص العبرة، وأن التفكر جَوَلان الفكر في الأمر الذي تكون له صورة عقلية عن طريق الدليل. أما التدبر؛ فإنه يعني النظر العقلي إلى عواقب الأمور. وهناك فرق جوهري آخر بين التأمل وكل من التفكر والتدبر يتمثل في أن التأمل قد يحدث بالبصر وحده أو بالبصر يعقبه التفكر، أما التفكر والتدبر فبالبصيرة وحدها، إذ هما من أعمال القلب (أو العقل).

التفكر هو النظر في المسلَّمات والبناء عليها، وليس التفكير كذلك، الذي هو الاستنباط والتحليل. والتفكر فعل وجداني في العمق، أما التفكير فهو فعل

عقلي. والتفكر استجابة فورية، والتفكير عمل مستديم متدرج متراكم. والتفكر يُحدث يقظةً يحكيها (أبو سليمان الداراني) فيقول: «إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله عليّ فيه نعمةً، ولي فيه عِبرة!». وأهل اليقظة والفكر عاداتهم عبادات: النوم، الأكل، الكلام، التجارة، وأهل الغفلة عباداتهم عادات. والتفكر وفق تعبير الدكتور (سلمان العودة)، يمنح النفس هدوءًا وطمأنينة من داخلها، فلا تهزها المؤثرات ولا تقلقها الجَلبة.

والتفكر كما يعرفه البروفيسور (عبد اللطيف حيدر): «يعني القدرة على إدارة التفكير بشكل يحقق الأهداف المرجوة، وهو بهذا يتضمن الوعي بالمعرفة المكتسبة وطريقة تعلمها، والقدرة على تنظيمها». والتفكر هو رحلة مع الذات لمعرفة أسباب هذا الواقع المرير الذي يجثم بظلاله على واقعنا، ويشكل حركتنا في فضاء المستقبل.

والتفكر قضية كبرى يدور حولها الدين، فلولا العقل ما خُوطِب الإنسان، ولولاه ما كُلِّف ولا حُوسب. والقرآن الكريم طالب المسلمين بأن يتفكروا ويتدبروا وينظروا ويفقهوا ويعقلوا، لأن القرآن لا يعطي ثماره إلا لمن يطلبها بصدق، ويستخدم عقله وبصيرته ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وفق تعبير الدكتور (جاسم سلطان). والعقلاء يعلمون أن التفكر في الخير يدعو إلى العمل به، والتفكر في الشر يدعو إلى تركه.

وما يقال عن التفكر يمكن أن يقال عن التفقه، وهي خطوة عقلية أبعد مدى من التفكير، تجعل الإنسان أكثر وعيا لما يحيط به، وأعمق إدراكا لأبعاد

وجـوده وعلائقـه في الكـون، كـما تجعلـه متفتـح البصـيرة دومـا، مسـتعدا للحـوار المسـؤول إزاء كل مـا يعـرض لـه عـلى صفحـة العـالم والوجـود.

ويبـدو لي أن الوصـول إلى ذروة التفكـر والتأمـل الإيجـابي هـو قـدرة الإنسـان عـلى الجمـع بـين (القراءتـين): قـراءة الإنسـان لكتـاب اللـه المسطور (القـرآن الكريـم)، وقراءتـه لكتـاب اللـه المنظـور (الكـون بمـا فيـه ومـن فيـه)، وهـذا لـن يتحقـق عـلى الوجـه الأكمـل إلا عندمـا تشـترك فيـه أكـثر مـن مَلَكـة وأكـثر مـن حاسـة، فالعـين تنظـر، والأذن تصغـي، والعقـل يفكـر ويتأمـل، والقلـب ينفعـل ويخشـع، ويـأتي بعـد ذلـك دور اللسـان ليترجـم تسلسـل هـذه العمليـات إلى تسـبيح وشـكر وحمـد ورجـاء، ولعـل هـذا بعـض مـا يشـير إليـه قولـه تعـالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ(١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(١٩١) ﴾. {آل عمـران: ١٩٠-١٩١}.

هـذا الجَـوَلان العجيـب في هـذا الكـون البديـع، أحـدث انقلابـا داخليـا وحالـة وجدانيـة في جسـم الإنسـان عـبّرت عنهـا أكـثر مـن حاسـة وأكـثر مـن مَلَكـة، وهـذه هـي طبيعـة القـرآن مـع النفـس البشريـة، فهـو لا يأخذهـا مجـزأة، ولكنـه يتعامـل معهـا ككيـان واحـد.

ولا يـملك الباحـث المتدبـر في القـرآن الكريـم إلا أن يندهـش للاسـتعمال المكثـف للألفـاظ والمفاهيـم الجماليـة، استعمالاً لم يـأت عـلى نمـط واحـد، ولم نلحـظ في تـرداده رتابـة أو تكلفـا، بـل يـأتي عذبـا زلالا يصـف المشـاهد الجماليـة بلغـة مبينـة، تعكـس

المقصود وتجليه، وتبلغ المراد في لبوس يجعل القارئ والمتأمل يسبح في عوالم روحية آية في الجمال، ويتذوق السياقات اللغوية في تنوعها البديع ورصفها المحبوك، فإذا هو مأخوذ قلبا وقالبا في مناجاة يرددها لسانه باللغة القرآنية الآسرة، ويجد رجع صداها هادرا في قلبه وروحه المنتشية بتتالي لوحات الجمال والجلال، وفق تعبير الدكتور (عبدالعظيم صغيري).

وسيلاحظ من منحه الله حاسة تدبرية فائقة أن القرآن المكي لم يعالج قضية العقيدة بشكل نظري، وإنما كان يعرضها ويعالجها بصورة يختلط فيها نداء العقل الواضح باستثارة الروح والنفس، لتشاهد الأدلة على إبداع الله لهذا الكون وعلى أحقيته للعبادة وحده.

والتدبر حالة انفعالية يتأثر فيها المؤمن بما يحسه ويدركه من دقة وجمال في كتاب ربه المقروء (القرآن الكريم)، وفي كتاب ربه المنظور (الكون)، ولهذا فإن التدبر والتفكر ليس حالة معرفية باردة تزداد بازدياد المعلومات، بل هي أبعد من ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ {ق:٣٧}.

ونحن مأمورون عندما نتصدى لنفحات الله بالتدبر، ومطالبون بممارسته، فالتدبر من أهم الأدوات المنهاجية، أما القول بالهوى والتشهي والرأي المذموم فإنه من عوائق المنهج، والتدبر عمل عقلي منهاجي خلافا للقول بالرأي الذي قد لا يعدو أن يكون هوى أيديولوجيا أو نحوه، وفق تعبير الدكتورة (منى أبو الفضل).

ومن المعلوم، وفق تعبير البروفيسور (فؤاد البنا)، أن التدبر والتفكر والتبصر عمليات عقلية، يستدعي القيام الوافي بها تفعيل كافة القدرات العقلية من: تحليل وتركيب واستقراء واستنباط وخيال واستظهار. ومن يقرأ القرآن سيجد أن حجر الزاوية في فهمه هو (التدبر)، مثل قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ {محمد:٢٤} أما حجر الزاوية في التعامل مع آيات الكون فهو (التفكر)، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾. {آل عمران: ١٩٠}.

ويحدثنا الشيخ محمد متولي الشعراوي، في واحدة من خواطره التفسيرية الرائعة، عن أهمية وضرورة الجمع بين التأمل والتفكر والتدبر من جهة وبين العمل والتطبيق من جهة أخرى، فيؤكد أن الله سبحانه وتعالى لم يقل: استجبت لكم، لكنه جعل الاستجابة هي قبول العمل فقال سبحانه﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ ﴾ {آل عمران:١٩٥} ، فليست الحكاية كلاما يقال، إنما يريد الله أن تدخل هذه المسائل حيز التطبيق والنزوع العملي؛ فالمسألة ليست بالتمني فقط، فقد وضع سبحانه الشرط الواضح وهو العمل، فمن يريد استجابة الحق فلابد له من العمل. إن التفكر في بديع صنع الله لا يغني عن العمل؛ لأن الحق سبحانه يريد التفكر فيه وأنت تعمل في أسبابه. فأسباب الحق لا تشغلك عنه.

وإذا كانت القراءة تصنع رجلا كاملا، فإن التدبر والتفكر والتأمل يصنع رجلا عميقا، كما تصنع المحادثة رجلا واضحا. وبناء عليه فإن تدبر القرآن يفتح

القلب للحق ويرققه للاتباع، وهذا من فضل الله أولا، ومن عطاء القرآن الكريم لمن وفقه الله لحسن التعامل مع كلامه ثانيا.

وقد اقترنت الإشارة إلى (قدرة التدبر)، بالقدرة على الربط بين المقدمات، والنتائج واكتشاف الأسباب التي أدت إلى هذه النتائج. «إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته»، كما قال الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. وأما (النظر) فهو قدرة عقلية تشترك معها قدرات السمع، والبصر للكشف عن المجهول. و«التفكر تصرف القلب بالنظر في الدليل، والتدبر تصرفه في العواقب»، كما يقول: (الجرجاني، في التعريفات).

وفي واقع الأمر فإن لحظة تدبر واحدة لكفيلة بأن يدرك المرء أن الحاضر في حالة صيرورة إلى أن يصبح زمنًا غابرًا، وأن المستقبل يدركنا في كل لحظة، وعندما نمتنع من اتخاذ قرارات ومواقف فيما يتعلق بالمستقبل، فلا نملك أن نستديم الحاضر ولا أن نمنع المستقبل من أن يكون وأن يلحق بنا ويسيطر علينا، وكل ما في الأمر أننا لا نتعلم أن نشارك فيما سوف يقع فتكون النتيجة أننا نخسر كل شيء فيما هو آت وكائن ويؤخذ منا عنوة ما كان يمكن أن نأخذه اختيارا. إذن فليس هناك فكاك من المستقبل، وإن القرآن ليهدينا سبل الاختيار فيما هو آت من الأمور.

الرُّوحُ وَالعَقْلُ وَالجَسَدَ
كَيَانٌ مُتَنَاغِمٌ
في الإِنْسَانِ السَّوِيِّ

النفس الإنسانية جسم وعقل وروح، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وإذا كنا نستطيع أن نتحدث عن الجسم بقدر من الوضوح والثقة، فليس لدينا القدر نفسه من الثقة في الحديث عن الروح والعقل، فالروح من أمر الله، ولكنها تتمثل في وجود الحياة في الإنسان كما نعرفها في الحياة الدنيا، بوظائفها وتمثلاتها، التي تنتهي بانتهاء الحياة عندما تفارق الروحُ الجسد، وتكون روحاً مؤمنة طيبة، أو روحاً عاصية خبيثة. أما العقل، وفق تعبير الدكتور (فتحي ملكاوي)، فهو القدرة على التعقل؛ أي الوعي والإدراك، وربما يكون للدماغ شأن في هذه العلمية، لكن النص القرآني يجعل القلب هو الجهة التي يتم فيها فعل التعقل، فالقلوب التي في الصدور هي موضع التعقل، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ {الحج:٤٦} .

إن الإنسان في نظر الإسلام ليس شقين منفصلين: شقا أرضيا يعمل، وشقا سماويا يتعبد، وإنما العبادة عمل، والعمل عبادة. والإنسان بشقيه شيء واحد، لأنه منذ مولده الأول قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله، ممتزجان غير منفصلين، ومن ثم فليس شيء في كيانه منفصلا عن بقية الكيان العام. الروح والعقل والجسم كيان واحد، والعمل والعبادة كيان واحد، والدنيا والآخرة كيان واحد، وكل عمل يقوم به الإنسان صادر عن كيانه كله، وكل لحظة من حياته هي للدنيا والآخرة في آن واحد، كما يؤكد على ذلك الأستاذ (محمد قطب).

وليس هناك عمل واحد من أعمال الإنسان مستقل بذاته، غير مرتبط ببقية

الأعمال. نشاطه الروحي، ونشاطه العقلي ونشاطه الجسمي كله صادر عن كيانه الموحد، ومن ثم فكله مترابط، وكل جانب منه يؤثر على بقية الجوانب، فالمشاعر ذاتها تجهد الجسم أحيانا إذا زادت على احتماله، وهكذا يرتبط الجسم بالروح في لحظة العبادة ... يرتبطان في عالم الحقيقة وفي داخل النفس، وإن سها الإنسان لحظة عن هذا الارتباط.

إن الدنيا ليست مملكة الجسم، والآخرة مملكة الروح، بل هما مملكة الجسم والروح في آن واحد، وهي رحلة واحدة أولها في الدنيا ونهايتها في الآخرة بلا انفصال، والإنسان يقطعها من أولها إلى آخرها وهو بذاته الإنسان.

وهناك حقيقة أخرى في كيان الإنسان جديرة بالتنويه، هي تعدد جوانبه، ومن هذا التعدد تنشأ حقيقتان:

إحدى الحقيقتين أنه لا يحدث في أية لحظة من اللحظات أن ينحصر كيان الإنسان في جانب واحد، الجانب الجسدي أو الروحي أو الفكري، أو الاقتصادي أو المادي، وإنما هو دائما شامل لأكثر من جانب، شامل لكيانه كله في الحقيقة. والحقيقة الثانية أن الإنسان لا يمارس أي نشاط من نشاطاته بجانب واحد من جوانبه ولو كان نشاطا متخصصا إلى أقصى حد.

الإنسان الفرد وحدة متكاملة، وقواه المختلفة موحدة الاتجاه، فهو ليس جسما مستقلا بذاته عن الروح والعقل، وليس عقلا منفصلا لا علاقة له بالجسم والروح، وليس روحا هائمة بلا رابط من عقل وجسم، بل هو كيان واحد متكامل الأجزاء، وفق تعبير الدكتور (علي مدكور). وسعي الإنسان للكمال في النظرة

الإسلامية، هي حصيلة مشتركة لكامل كيان الإنسان، يسهم فيها الجسم والروح والعقل، ومن هذه المساهمة المعقدة التركيب يتكون السعي للكمال الإنساني. حتى الصلاة في حياة المسلم كما يقول الدكتور (صالح الشامي) لا تؤدَّى منفصلة، بل تقوم بها كل ملكات الجسم وحواسه، وعلى قدر حضور القلب والعقل مع بقية الأعضاء في الصلاة يكون كمالها وتمامها، حيث يقول: «يصلي الجسم: وصلاته تلك الحركات الموزونة المنضبطة. ويصلي العقل: فيعيش مفكرا بتلك الآيات أو التسبيحات التي تؤدي خلال ومع حركات الجسم. وتصلي الروح: بمشاعرها وخشوعها، بأشواقها وتطلعاتها. كل ذلك يجري في وقت واحد وبتناسق واضح، إنها صلاة يؤديها الإنسان بكليته».

ورسالة المسلم في الحياة مهمة، إنها تعدُّ الخطوة الأولى في إدارة الإنسان لحياته، وهذه الرسالة هي التي يستطيع من خلالها أن يدير حياته الروحية، وعندها سيدير الروحُ العقلَ، والعقلُ يدير المشاعر والجسد والتصرفات، في عملية متناغمة، تجنب الإنسان وحشة التمزق والتعارض بين جوانبه المتعددة، ليعيش مطمئنا سعيدا.

ولعل أكبر نقطة ضعف في الحضارة الحديثة التي تظلل الناس اليوم، أنها وضعت كل ما يتعلق بشؤون الروح والقلب في ذيل اهتماماتها، وفق تعبير الدكتور عبد الكريم بكار، حتى بات ينظر إلى من يتحدث عن الإشراق الروحي، أو صفاء القلب، أو الأنس بالله، نظرة إشفاق واستغراب. كما أن أفظع مأساة تهدد سكان العالم اليوم هي أن غربة الإنسان المعاصر أصبحت غير إنسانية، بمعنى أن

الوسواس لم يعد يدمر الجسد فحسب بل صار يدمر الروح أيضا، كما أشار إلى ذلك الدكتور (علي شريعتي).

ولم يعرف الإسلام طوال تاريخه هذا الانفصال المشؤوم بين الدين والحياة، والذي طال جوانب كثيرة، بما فيها من علم وثقافة، وقضاء وتشريع، وسياسة واقتصاد. ولم يعرف المسلمون هذا التقسيم في كثير من شؤونهم، بين ما هو ديني وما ليس بديني، فلم يكن عندهم تعليمان: تعليم ديني وتعليم مدني، ولا قضاءان أحدهما شرعي والآخر أهلي، ولا سلطتان إحداهما دينية والأخرى زمنية أو دنيوية، بل امتزج الدين عندهم بأمور الحياة كلها امتزاج الروح بالجسم، فهل يمكن أن تفصل بين الروح والجسم أو تميز بينهما؟ كذلك الدين والحياة امتزجا في كيان واحد هو المجتمع أو الأمة المسلمة، كما يؤكد على ذلك الدكتور (يوسف القرضاوي).

إن قضية الروح هي بالفعل قضية حقيقة الإنسان، وهي حقيقة الحقائق، فلئن كان في الإنسان مادة هي الجسم، فإن في بقية الحيوانات أجساما أيضا، وإن كان في الإنسان مصباحا اسمه العقل، فإن لعالمي الجن والملائكة ـ بل وفي بعض الحيوانات ـ عقولا بمستويات مختلفة.

وليس بالجسم والعقل يمكن أن تتحقق حقيقة الإنسان، ولا أن يسمو الإنسان السمو الذي يليق به، وإنما يتحقق له ذلك (بالروح الفاعلة الإيجابية) التي تقود جسده وعقله وتصهرهما في بوتقة إنسانية، يحلق بها الإنسان في السماء فوق الطيور ومع الملائكة ومع كل الأشواق العليا، ويخضِع بها غرائزه وإبداعات

عقله لغايات سامية، تبني ولا تهدم، ترتفع ولا تهبط، تصوغ الحياة صياغة ربانية إنسانية، وليس صياغة حيوانية صراعية. وقد كان من حكمته سبحانه وتعالى، وفق تعبير الأستاذة (هيام الملقي)، أنه لم يكلف الإنسان أن يعبده على طريقة الملائكة، وإلا لخلقه مَلَكًا منذ البدء، نورا شفافا بلا جسد طيني، ولا فكر ينشغل بأمور الحياة، ولكنه تعالى جعل كل نشاطه وفاعليته عبادة في مظهرها الروحي والعقلي والجسمي.

ويخبرنا الدكتور (عمار علي حسن) عن بعض الطقوس الروحانية الأرضية التي تعلي من قيمة (الصمت) ومكانته، كونه يمكّن الروح من الانبثاق من وراء المادة والغرائز. (فاليوغا) التي تقوم على تحرير النفس من ارتباطها بالمادة، كما يعتقد ممارسوها، وهي قاسم مشترك في بعض ديانات شرقي آسيا، تجعل الصمت جزءا أصيلا من تكوينها وجوهرها، إذ تطلب ممن يؤديها أن يُسكِت صوت المتعدد الخارج من الجسد والنفس والغريزة والرغبة والعقل، حتى يتسنى له أن يسمع صوتا واحدا في داخله، وتقول للواحد منا: (إذا استطعت إسكات كل شيء فسوف تسمع من أعماق الصمت في داخلك صوت الواحد... عليك بالإصغاء إلى صوت الصمت). ورغم ما في هذا التجارب الروحية من هشاشة وأحياناً تفكك، إلا أنها تدل دلالة واضحة على محاولة الإنسان وسعيه الحثيث للانفكاك من عالم المادة الكثيف إلى عالم الروح الشفاف، وسيبقى الإنسان في حالة بحث مستمر، تدفعه أشواقه الروحية، وهو بين أمرين: إما أن يتعثر في الطريق، وإما أن يصل إلى عتبة باب رب الروح، وعندها تكون الروح قد بلغت مناها ووصلت إلى مبتغاها.

والدنيا هي معاش الإنسان والآخرة معاده، والجسم وسيلة الأداء ووعاء الروح، والروح وسيلة التسامي والتميز عن الحيوان، والدين فطرة الإنسان ووسيلة توجيه سلوكه وحمايته من السقوط، ووفقا لذلك فإن الإيمان بالله سبحانه وتعالى ليس غريزة فطرية فقط، بل هو ضرورة، فالدين عنصر ضروري، والإنسانية بحاجة إليه، للكمال النفسي، والكمال الروحي. فالإنسان جسم وروح، والجسم يتغذى بالطعام، والشراب، بينما تتغذى الروح بالإيمان، والعقيدة، وعلى ذلك فالإسلام منهج شامل لأمور الدنيا والآخرة، ومحقق لمصالح الفرد والجماعة، قوامه الشريعة والعقيدة والأخلاق، فليس ديناً فقط، ولكنه دين ونظام حياة، لا تنفصل فيه العلاقة بين الله والإنسان، عن الصلة بين الإنسان والإنسان، والإسلام ينظمها جميعاً.

ومن هنا فقد جعل القرآن الرؤية التوحيدية الأساس المتين لبناء الشخصية الحضارية الفاعلة، حيث ارتقى بتصرفات الإنسان ووحدتها، من خلال الارتقاء بتصوره الكوني ورؤيته التوحيدية، التي لا انفصام لها ولا ثغرات فيها، إذ ينسجم العقل مع النقل، ويتعانق الجسم مع الروح، وتتعاون الشهوات مع الأشواق، وتنساب الدنيا مع الآخرة دون أي تعارض أو تناقض، وفق تعبير أ. د. فؤاد البنا. وفي المقابل يبين لنا القرآن الكريم أن علاقة الإنسان بالحاجات المادية الجسدية علاقة صميمة، وأن حبه لإشباعها مركوز في جبلته، التي يشكلها الجسد، تماما كما تحركها الروح والإرادة والقدرات العقلية. والروح مهما كانت متوهجة وصادقة ومندفعة، فإن تأثيرها وإنجازها ونجاحها يظل إلى حد ما خاضعا لإمكانات الجسد،

حيث يمكن اعتبار الجسد (راحلة) الروح بالنسبة للإنسان، فعليه أن يترفق بهذه الراحلة (الجسد) ويعتني بها، حتى يقطع بها مسافة العمر الذي منحه الله إياه، أما عندما يسيء إلى هذه الراحلة أو يكلفها فوق طاقتها، فإنها سترهقه في طريقه، إن لم يصل الحال إلى توقفها، وعندها ينطبق عليه صفة (المنبتّ الذي لا ظهرا أبقى ولا أرضا قطع)، وفق كلام المعصوم - صلى الله عليه وسلم -.

وإذا كانت النفوس كبارا   تعتبت في مرادها الأجسام

ويمكن تعريف الصيام بأنه: «أوضح محاولة لسيطرة الروح على الجسد»، كما عرّفه (علي عزت بيجوفيتش). وأن الفرد حين ينظر بعين جسده لا يرى إلا نفسه وما حوله، ولكن عندما تنظر الروح ترى أشياء أخرى، وهنا تتحقق المسؤولية الفردية تجاه العالم اجتماعيا وكونيا، ويحس الإنسان بالحب كصفة ربانية، تمنحه القدرة على رؤية الجمال وتذوقه ومن ثم معرفة الخالق سبحانه وتعالى.

وبناء على ما سبق، يمكن القول إن رفاهية الجسد تقوم على المزيد من الأخذ والاقتناء والاصطفاء، أما رفاهية الروح فإنها تقوم على المزيد من العطاء المجاني التطوعي. رفاهية الجسد تعزز الندرة في المجتمع وتزيد من شح الموارد، لأنها تحتاج دائما إلى المال. أما رفاهية الروح فإنها تعمل بطريقة معاكسة، لأنها توجد فائضا، فهي لا تحيا إلا من خلال العمل والعطاء والمعاونة. وكلما ترفه الجسم، بشكل مبالغ فيه، وعلى حساب بقية الجوانب، تعقدت الروح.

«وفي اعتقادي الراسخ (والكلام للمهاتما غاندي) أنّ قوة الروح تنمو بتناسب مع إخضاعك للجسد». وقد نتفق مع غاندي في المعنى العام، ولكننا نختلف معه عندما يتحول الأمر إلى رهبانية وتعذيب للجسد وحرمانه من متطلباته الأساسية، لأن الجسد المتعب يخنق الروح، كما أن الروح المتعبة تفسد الجسد. والروح في الحب الحقيقي تحتضن الجسم، ولكن في الحب المزيف يحدث العكس، أي يحتضن الجسم الروح، والفرق شاسع بين هذا وذاك لمن يدرك معاني الحب السامية.

الدُّعَـــــــاءُ

مِعرِاجُ الرُّوحِ
وَسَبِيلُ وَصْلِهَا بِأَصْلِهَا

هنـاك علاقـة وطيـدة بـين الدعـاء وبـذل الأسـباب في جميـع مجـالات الحيـاة عـلى المسـتوى الفـردي، وعـلى المسـتوى الجماعـي، فالدعـاء مطلـوب كعبـادة، ولكنـه ليـس بديـلا عـن بـذل الأسـباب بالطبـع، ولنـا في قصـة ذي القرنـين أكـبر شـاهد عـلى مكانـة الأسـباب التـي يُجـرِي اللـه عليهـا وبهـا سـننه، فالله مكّـن لـذي القرنـين مـن خـلال منحـه الأسـباب، ﴿إِنَّـا مَكَّنَّـا لَـهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَـاهُ مِـنْ كُلِّ شَيْءٍ سَـبَبًا﴾ {الكهـف:٨٤} ، وقـد قـام ذو القرنـين بذلـك خـير قيام﴿ فَأَتْبَعَ سَـبَبًا ﴾ {الكهـف:٨٥} ، وقـد تكـررت هـذه الآيـة ثـلاث مـرات كآيـة مسـتقلة، خـلال نصـف صفحـة مـن سـورة الكهـف، وفي هـذا مـا فيـه مـن الدلالـة والأهميـة.

بـذل الأسـباب سـنة مـن سـنن اللـه التـي وضعهـا سـبحانه للحصـول عـلى التغيير المطلـوب بجميـع جوانبـه، والدعـاء عبـادة تسـبق بـذل الأسـباب وترافقهـا وتعقبهـا، وقـد لا يكـون الدعـاء موجهـا للحصـول عـلى نتيجـة معينـة فحسـب (كالنصر، والشـفاء، والتمكـين، وهـلاك الظالمـين، ...)، بـل قـد يكـون في أحيـان كثـيرة طلبـا للمـدد والعـون والتوفيـق مـن اللـه، كي يدلهـم عـلى الأسـباب التـي عليهـم بذلهـا ليصلـوا مـن خلالهـا إلى النتائـج التـي يأملـون الوصـول إليهـا، وقبـل ذلـك وبعـده توفيـق اللـه ورعايتـه.

وحتـى لا تـترك (الأسـباب) ويسـتهان (بالدعـاء)، فينبغـي علينـا أن نوجـه جهدنـا التوعـوي للتأكيـد عـلى ضرورة بـذل الأسـباب للحصـول عـلى النتائـج المرجـوة، وأن نؤكـد بالقـدر ذاتـه عـلى محوريـة الدعـاء، وأهميتـه في تعلـق قلـب المؤمـن باللـه الـذي يقـول للـشيء ﴿ كُـنْ فَيَكُـونُ ﴾ {البقـرة:١١٧} ، ولا أرى في ذلـك تناقضـا إلا في حـال تـم العمـل بأحـد الأمريـن (بـذل الأسـباب أو الدعـاء)، وإهـمال الآخـر، فعندهـا يكـون الخلـل الـذي لـن يجـبره القيـام بأحـد الأمريـن.

والمسلم يرى في بذل الأسباب سنة جارية، وقوة وضعها الله في يد الإنسان، ليغير بها وضعه، من الأمر السيء إلى الأمر الحسن، بكل ما تعنيه كلمة (السيء والحسن) من معنى، وهذا الأمر (بذل الأسباب) قد يستوي فيه المؤمن والكافر، ولكن الله تفضل على المؤمن بأن فتح له باب الدعاء، ليكون قوة إلى قوة بذل الأسباب وليس بديلا عنها، ونورا إلى نور بذل الأسباب، وبركة تجعل من بذل الأسباب قوة مضاعفة، ﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ {الأنفال:٦٦} ، وبهذا يتحول الدعاء وبذل الأسباب إلى منظومة متكاملة تعزز إحداهما الأخرى للوصول إلى أي نتيجة يرجوها الفرد أو ترغب في تحصيلها الجماعة.

وأعتقد أن قيمنا وثوابتنا في حاجة إلى أن نعيد بلورتها، ونسعى للربط بينها، حتى تتحول في مجموعها إلى قوة، تتلاحم وتتعزز من خلال تناغمها وانسجامها، لا من خلال انفصالها وافتراق بعضها عن بعض، فالبحث عما يعزز بعضها على حساب البعض الآخر، فيه إضعاف لها وتمزيق للحمتها، وهذا بدوره يضعف هذه القيم والثوابت ويقلل من فاعليتها، وهناك من يظن أنه بهذه الطريقة يقويها ويخدمها.

والملاحظ أن هناك جنوحا واضحا في عصرنا الحاضر للتخلي عن بذل الأسباب والركون إلى الدعاء وحده (على أهميته ومكانته)، في عملية بائسة تدل على رغبة في ترك العمل والتعويل على الأماني التي قد تصورها عقول من يعيشون هذه

الحالة، وهذا ليس من حسن الظن بالله، فلو أحسن الإنسان الظن بالله لأحسن العمل، وهذا يشبه الظن الذي عاب الله عليه أقواما، فقال سبحانه: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ {فصِّلت:٢٣} .

وبناء على ما سبق، فإننا مطالبون بأن يكون سلوكنا في هذه الحياة، قائما على السعي الجاد للأخذ بالأسباب، وتهيئة الظروف لذلك، ومراعاة الشروط التي وضعها الله لفاعلية الأسباب، ومع ذلك وقبله وبعده، تبقى قلوبنا معلقة بالله، ضارعة إليه أن يسدد خطانا، وأن يلهمنا الرشاد، وأن يهدينا سبل السلام، التي تعيننا على إنجاز أعمالنا على أحسن ما نحب ونشتهي، وعندئذ يجدي الدعاء بإذن الله، لأننا سلكنا الطريق الصحيح الذي لن يخيّب الله دعوة داعٍ سار فيه.

والدعاء جهد واعٍ وليس مجرد ألفاظ تقال، بل هو موقف نفسي متميز، يتطلب من المرء أن ينتقل من موقفه السلبي، الذي كان عليه حين ارتكب الخطأ، إلى موقف جديد مِلؤه العزم والتصميم، على تجاوز الخطأ والعودة إلى الحق. والدعاء مسؤولية، كما عبر عن ذلك الدكتور (أحمد كنعان)، لأن العبد منذ اللحظة التي يتوجه فيها إلى ربه بالدعاء يصبح مسؤولا عن موقفه هذا، الذي يتضمن عهدا مع الله، ألا يعود إلى ما كان عليه من سلوك، وما ارتكبه من ذنب، فإن عاد كان كالمستهزئ بربه، وكان عهده مع الله حجة عليه.

وهذا يقودنا إلى تأكيد أن الدعاء فعل وفاعلية، وليس سلاح العاجز وتكريساً للعجز، ذلك أن الاستعانة بالله سبحانه وتعالى، معقد الرجاء وسبيل الصمود والثبات على القيم، وعدم الانكسار أمام الأزمة: (بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل

المظلم)، كما يقول المصطفى - صلى الله عليه وسلم -، وهذا من عوامل ثبات المؤمن، لأنه في حالة العجز تتشكل الشخصية المهزوزة، التي تبيع دينها بعرضٍ من الدنيا قليل.

والدعاء في حقيقته وعلة تشريعه ليس هروباً من الحياة، ولا انسحاباً من قضاياها ومشكلاتها، ولا إلغاءً لهمومها وهممها، كما قد يتوهم كثيرون، إنه ليس حالة سلبية، أو تجاوزاً للسنن والقوانين الإلهية وقفزاً من فوقها، وإنما هو تجديد لإبصارها، والإيمان بفاعليتها واطرادها، ورجاء امتلاك القدرة على تسخيرها، والوصول إلى القدرة على مغالبة قدر بقدر.

والدعاء قوة دافعة، ودرع واقية، وحالة إيجابية تربوية وقائية، يمكّن لملكة التقوى في النفس، ويبصّر بالفرقان المتولد منها وعنها، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ {الأنفال:٢٩}، وحالة علاجية تعالج الإحباط والانكسار واليأس والعجز وانطفاء الفاعلية... إنه تجديد للفاعلية، وشحذ للهمة، وإزالة للهموم، ومنح الثقة لتجاوز الحواجز والموانع والمعوقات، وتحقيق الاتصال المباشر مع القوة المطلقة، صاحبة العلم المطلق، والبوح لها بكل المعاناة، وفق تعبير الأستاذ (عمر عبيد حسنة).

إن الدعاء اتصال مباشر في كل زمان ومكان، ولحظة وحالة مع القوة المطلقة القادرة على الاستجابة، وفي هذا ما فيه من المعاني التي وقف عندها طويلاً علماء التحليل النفسي المعاصرون، الذين يعتبرون أن البوح عما يعتلج في النفس

والتفريغ للأحزان والآلام هو سبيل شفاء الكثير من الأمراض النفسية، وأن حالات الضعف والإصابة النفسية تستدعي البوح الذي يحقق الراحة النفسية للمريض، ويعيده إلى الحالة السوية ويسهم بشفائه، لدرجة قد نضِل معها الطريق، لعدم الوضوح في الإيمان، فنذهب إلى الإيمان بالسحر والشعوذة والخوارق والأساطير والقديسين وما إلى ذلك.

فالإنسان خطَّاء بطبيعة خلقه، وأخطاؤه تطارده، وتثقل كاهله، وهو بحاجة إلى الخلاص من المعاناة، لذلك فإن هذه الحالة من المعاناة استُغلت كثيراً من بعض المخلوقين، من رجال الدين والكهنة في الرؤية المسيحية، وأشباههم في الديانات الأخرى، وانحرفوا بها ولعبوا بتوجهاتها الفطرية، وكم من الضحايا سقطوا نتيجة لابتزاز الكهنة ورجال الدين في أموالهم وأعراضهم، حيث جعلت مسألة العفو والتجاوز والغفران منوطة ببشر يجلس من يريد غفران ذنوبه ويعترف أمامه على كرسي يسمى بكرسي الاعتراف، فيكشف مستوره حتى يتحول إلى رهينة بماله وعرضه لإنسان مثله، فيكون ذلك سبباً في التسلط عليه وابتزازه.

وقد تكون الإشكالية الأخطر، وفق تعبير الأستاذ (عمر عبيد حسنة)، هي الاقتصار في الدعاء على التوجه صوب الآخرة فقط، على ما لهذا المصير من أهمية كمحرك وموجه لمسارات الحياة وأنشطتها باتجاه الخير، لكن المشكلة أن يقتصر الأمر على عدم الإبصار من الدعاء إلا الغفران والفعل الأخروي من رجاء الثواب، الأمر الذي عزل الدعاء شيئاً فشيئاً عن الحضور في شؤون الدنيا وكأنما صار هناك فصل بين شؤون الدنيا ومهام الاستخلاف في الأرض وشؤون الآخرة بشكل عملي،

ولذلك تحرك الدعاء صوب الآخرة وانسحب من الدنيا وقضاياها، فتحول من حالة إيجابية تمنح اليقين والثبات والعزيمة والنشاط والفعل المستقيم المثاب الذي يهوِّن مصائب الدنيا والتعاطي معها، إلى صورة سلبية معطلة بعيدة عن الشأن الدنيوي والانحباس عند الشأن الديني، بمفهومه الحسير، كشأن سائر الثنائيات الجدلية والخيارات، التي فرضت علينا من ثقافات الأمم السابقة وما نزال نعاني منها، والتي دمرت العقل البشري تاريخياً وبقي أمامها حائراً؛ لأنه عاجز عن الاختيار والمقابلة والمعادلة بين قضايا صعبة من مثل الدنيا والآخرة، والجسم والروح، والدين والدولة، والعلوم التجريبية والعلوم الشرعية، وما إلى ذلك من الثنائيات.

ونحن نكرر الدعاء لأنفسنا، كما نكرر غسل أعضائنا لأن أسباب هذا التكرار قائمة، فالجسم الإنساني لا يكفي في تطهيره أن يغسل مرة أو مرتين، لابد من تكرار الغسل مدى الحياة!! وفق تعبير الشيخ (محمد الغزالي). والطبع البشرى لا تصقله دعوة أو دعوتان، لابد من تكرار الوقوف بين يدي الله، لأن رعونات النفس ووساوس الشيطان لا تنتهي، فلابد من تكرار الدعاء واستدامة التضرع، يقول تعالى متحدثا عن ضرورة المحافظة على الصلاة التي تعتبر أرقى تواصل مع الله، وفيها أسمى ما يمكن أن يقال من الذكر والدعاء: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ {النساء:١٠٣} ، وفي الآية إشارة واضحة على ضرورة المداومة والتكرار، لما لذلك من أهمية لتزكية الإنسان وتطهيره من الذنوب، ولما

في ذلـك مـن حاجـة ماسـة للترقـي في منـازل السـائرين إلى اللـه.

وتأمـل معـي -أخـي القـارئ- تلـك المشـاعر التـي سـيطرت عـلى الشـيخ (محمـد الغـزالي) عنـد تأليفـه لكتابـه (فـن الذكـر والدعـاء عنـد خاتـم الأنبيـاء)، حيـث قـال:» وقـد تملكنـى شـعور بـأن الأرض مـن الأزل إلى الأبـد لم تشـهد ذاكـرا عابـدا متفننـا في الثنـاء عـلى اللـه وتمجيـده وتقديسـه كـما رأت ذلـك في سـيرة محمـد عليـه الصلاة والسـلام، وآثـار ذلـك واضحـة جليـة في القـرآن الكريـم والسـنة المطهـرة الناطقـة بهـذه الحقيقـة».

ويـأتي الدعـاء للـه عـلى ثلاثـة أوجـه: فـضرب منهـا توحيـده والثنـاء عليـه كقولـك: يـا اللـه، لا إلـه إلا أنـت، وكقولـك: ربنـا لـك الحمـد، إذا قلتـه فقـد دعوتـه بقولـك: (ربنا) ثـم أتيـت بالثنـاء والتوحيـد. ومثلـه قولـه تعـالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ {غافـر:٦٠} ، فهـذا ضرب مـن الدعـاء. والـضرب الثـاني: سـؤال اللـه العفـو والرحمـة ومـا يقـرب منـه كقولـك: اللهـم اغفـر لنـا. والـضرب الثالـث: سـؤال اللـه الحـظ مـن الدنيـا كقولـك: اللهـم ارزقنـي مـالاً وولـداً، وإن سـمي هـذا جميعـه دعـاء، لأن الإنسـان يصـدر في هـذه الأشـياء بقولـه: يـا اللـه، يـا رب، يـا رحمـن، فلذلـك سـمي دعـاءً.

وفي نـصٍ قيّـم أورده ابـن القيـم الجوزيـة في كتابـه (الـداء والـدواء)، يجمـع فيـه بعـض شروط اسـتجابة الدعـاء ويبـين أوقـات الاسـتجابة ويـشرح بعـض آداب الدعـاء يقـول فيـه: «إذا اجتمـع مـع الدعـاء حضـور القلـب واجتماعـه بكليتـه عـلى المطلـوب، وصـادف وقتـاً مـن أوقـات الإجابـة السـتة وهـي: الثلـث الأخـير مـن الليـل، وعنـد الآذان،

وبين الآذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم، وآخر ساعة بعد العصر، وصادف خشوعاً في القلب، وانكساراً بين يدي الرب، وذلاً له وتضرعاً ورقة، واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله تعالى، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله - صلى الله عليه وسلم -، ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله وألحَّ عليه في المسألة، وتملقه ودعاه رغبة ورهبة، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدم بين يدي دعائه صدقة، فإن هذا الدعاء لا يكاد يُردّ أبداً، ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر بها النبي - صلى الله عليه وسلم - أنها مظنة للإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم».

وهنا نعاود التأكيد: بأن الدعاء في الإسلام ليس رصف ألفاظ أو حفظ مفردات تجري على الألسنة، أو تختزن في الذاكرة، بدون تفاعل وانفعال بها، وإنما هو علاج، وتعبير عن حالة نفسية من التذلل والاستبصار، هو وسيلة شفاء، وتجديد، وإعادة ولادة للشخصية، ومحطة تعبئة للطاقات ليتابع الإنسان مسيرة الخير والاستقامة بلا هوان ولا تخاذل.

وإذا تأملنا الأدعية المأثورة بتنوعاتها، سواء ما ورد في كتاب الله الكريم، أو ما دعا به الرسول - صلى الله عليه وسلم -، رأينا أن لكل دعاء حاجته البشرية، وحالته النفسية، وظروفه الحياتية، وعلى الأخص عند معرفتنا بأسباب الورود، ومناسبات المعاناة، والمناجاة بها.

وإذا كانت استجابة الدعاء رحمة من الله، فموعد تنفيذ هذه الاستجابة رحمة أخرى، ولا يدرك كنه ذلك إلا من وثق بتدبير الله وحكمته، وإذا أراد الله أن يستجيب دعاء عبد رزقه الاضطرار في الدعاء، والاضطرار لا يتحققه العبد من نفسه في جميع حالاته، ولهذا على الإنسان أن يستغل لحظات الاضطرار ليرفع حاجاته إلى الله،﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ {النمل:٦٢} .

إن الدعاء نوع من الطمأنينة والسكينة، طمأنينة لا تتعلق بالإجابة بقدر ما تتعلق بالشعور الآمن بمعية الله، حين تشاركه مخاوفك، وتُطلِعَه على ضعفك الذي تخشى أن يتكشّف للناس، كما يعبر عن ذلك الأديب (أدهم شرقاوي)، ثمة شيء في الدعاء يجعلنا نتعافى من متاعبنا بمجرد أن نرفعه إلى السماء. والدعاء هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن نرفعه إلى السماء دون أن تسقطه طائرات حلف النيتو. وعند الابتلاء يتبين إيمان المؤمن، فهو يبالغ في الدعاء ولا يرى أثرا للإجابة، ومع ذلك لا يتغير أمله ورجاؤه، ولو قويت أسباب اليأس، لعلمه أن الحق أعلم بالمصالح، وفق تعبير ابن الجوزي.

يقول الإمام ابن القيم في كتابه (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي): «والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء يدافعه، ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرقّعه، أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن، وله مع الدعاء ثلاث مقامات:

الأولى: أن يكون الدعاء أقوى من البلاء فيدفعه.

الثانية: أن يكون الدعاء أخفَّ من البلاء فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد

ولكـن يخففـه، وإن كان ضعيفـاً.

الثالثة: أن يتقاوما (الدعاء والبلاء) ويمنع كل واحد منهما صاحبه.

وقـد دعـا الإمـام علـي بـن أبي طالـب رضي اللـه عنـه فقـال: «اللهـم اغفـر لي الذنـوب التـي تحبـس الدعـاء». وهـذا فقـه عظيـم منـه رضي اللـه عنـه، فهـو يدعـو ربـه أن يزيـل الحواجـز التـي تحـول بـين الدعـاء وبـين اسـتجابته، ومـع هـذا فـإن الدعـاء بالنسـبة للمؤمـن هـدف ووسـيلة، أي أن الدعـاء ليـس دائمـا للاسـتجابة فقـط، فالدعـاء إذا لم يتحقـق فهـو قـد اسـتجيب لـه، لأنـه هـو المطلـوب لذاتـه. فالدعـاء في بابـه عبـادة، عبـادة مقصـودة للـه أمرنـا بهـا، ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ {الأعـراف:٥٥} ، واللـه يحـب أن يتقـرب العبـد بهـا إليـه تحقيقـا لمعنـى الربوبيـة، وخضوعـا واعترافـا بحاجـة العبـاد إلى مـن يتعهدهـم، ويكشـف عنهـم مـا حـل بهـم مـن البـلاء.

وقـد كان الفـاروق عمـر بـن الخطـاب رضي اللـه عنـه يقـول: «إني لا أحمـل هـمَّ الإجابـة وإنمـا أحمـل هـمَّ الدعـاء، فـإذا أُلهِمـتُ الدعـاء فـإن الإجابـة معـه»، وهـذه ثقـة عظيمـة منـه رضي اللـه عنـه بربـه، وتحميلـه لنفسـه مسـؤولية التقصـير في الدعـاء، أمـا الإجابـة فهـي مضمونـة كـما يفهـم مـن منطـوق ومضمـون كلامـه، إذا توفـرت في هـذا الدعـاء شروط الاسـتجابة، فاللـه سـبحانه وتعـالى حينـما شرع الدعـاء لم يكـن في معنـاه تعطيـل قوانـين المسـببات في الكـون والخلـق، لأنـه مـا مـن شيء يتحقـق إلاّ ويحتـاج الى سـبب، ومـا مـن حـادث يحـدث إلاّ ولـه محـرّك.

وحـركات التاريـخ وسـننه المتتابعـة أثبتـت أن الابتعـاد عـن الديـن، فكـراً وسـلوكاً، هـو

أساس جميع ألوان الاضطراب والانحراف الفردي والاجتماعي، ابتداءً بفقدان الصحة النفسية والروحية، وانتهاءً بالممارسات المنحرفة، وهنا يأتي دور الدعاء ليكون عنصرا فاعلا في إعادة بناء شخصية الإنسان المسلم، وفي تنمية قدراته لمواجهة مختلف التحديات والأزمات، ووقف نزيف الألم والقلق النابع من داخله، من أجل التركيز على قضايا مصيرية تمس الفرد والأمة، وعاملاً أساسياً في تفجير طاقاته، وإشاعة روح النشاط في نفسه كي يقوم بواجباته بدلاً من كونه (أي الدعاء) وسيلة للاتكالية والتجميد والخمول، كما أصبح عند سواد الأمة.

والبناء الداخلي لأي تغيير هو من أدق الأعمال وأصعبها، وفق تعبير الدكتورة (سعاد الناصر)، لأن الواقع الخارجي ليس سوى انعكاس للتكوين والتعبئة الداخلية، فبقدر ما يكون الإنسان متماسكاً ومطمئناً داخلياً وواضحاً في رؤاه وتصوراته، بقدر ما يكون أقدر على تحقيق أهدافه داخل الأمة، وأقدر على التزود بزاد المرتحل إلى الله تعالى.

والدعاء في جوهره هو طلب تحقيق ما هو فوق مستوى الأسباب، وهو يعبر عن درجة رفيعة من الطموح الإنساني المستعين بالله تعالى. والدعاء - أيضا - عمل إيجابي يتطلب الصدق واليقين وحسن التوجه، تجسيدا للطموح في إرادة التغيير، على مستوى يفوق طاقة الإنسان. وليس المهم في الدعاء ما نختاره من الحروف، ولكن المهم فيه هو ما ينتابك من الشعور.

والدعاء نوع مبسط من أنواع الصلاة، له روح الصلاة، ولكن ليس له أطرها الرسمية، وقواعدها وتحضيراتها وإجراءاتها وأوقاتها المحددة، إنه نوع من الصلاة

الحرة الخفيفة الحمل، والمتنقلة التي تفاجئك في أي وقت وفي أي مكان، فلا تجد حرجا في أدائها حيث نادتك، وفي أي موقف وجدت نفسك فيه.

والدعاء عظيم، وعبادة جليلة، وربما احتاج المرء فيه إلى التضرع، ليعظم أجره، ويزول كبره، وتنقى نفسه، وتتهذب سريرته بطول الانكسار، فيتحقق له بذلك أمور عظيمة. والدعاء سلاح المؤمن، ويقوّي سلاحه زمن الإجابة، فليتحرَّ فيه أشد أعدائه عليه فيصده، وأحب شيء فيحميه، ولا أحب للمرء من دينه، ولا أشد عليه اليوم من الفتن، وفق تعبير الأستاذ (عبد العزيز الطريفي).

والدعاء هو الوجه الآخر للإرادة، وكأن لسان الحال يقول: أريد أن أكون مؤمنا، فاضلا، تقيا، غنيا، سعيدا، فاللهم أعني على ذلك. وإنما يكون الدعاء جديرا بأن يستجاب، إذا جرى به اللسان، بتلقين القلب، في حال استغراقه في الشعور بكمال الرب سبحانه.

وسؤال الوالدين الدعاء، أو من يتوسم فيه الناس الصلاح من أهليهم وأهل جوارهم، فذلك أمر مستحب، إذا تم بتلقائية وبروح التواصل والبر والمودة، لا بروح الدجل وادعاء مكانة هي بمنزلة التحكم في رحمة الله. ومن المهم ألا يكون طلب الدعاء ممن يتوسم فيه الصلاح أداة لإعفاء الذات من التوبة، ومن العزم على الصلاح والتقرب إلى الله حتى يكون المرء أهلا للاستجابة، وفق تعبير الدكتور (عبد الحميد أبو سليمان)، فطلب الدعاء من الصالح يجب أن يكون مصحوبا ببذل الجهد لإصلاح نفوسنا، فيكون دعاؤه وسيلة إلى مزيدٍ من التقرب إلى الله، وليس وسيلة للتهاون وغيبة الوعي.

ونتيجة للفهم السقيم لهذا الدين وأنه قائم على سنن وضعها الله حتى في مسألة الدعاء الذي هو طلب العون والمدد من الله ساء فهمنا له، فكم رأينا ملايين المظلومين من المسلمين الذين يتعرضون للاحتلال والغزو والذبح والإبادة العرقية والاعتقال وتدمير الممتلكات والمقدسات وهتك الحرمات، يدعون الله فلا يستجاب لهم، لأنهم عصوا الله بعدم الوحدة والإصرار على الفرقة وعدم الإعداد والاستعداد، وعدم الاسترشاد سياسياً وعسكرياً، «فجاءت المعصية مقدماً لتمنع الإجابة مؤخراً، وهذه من سنن الله في الآفاق والأنفس». د. (ماجد الكيلاني).

ومن كانت رجله في الطريق فمطيته الأيام والليالي، كما يقال، ثم وقفت على قول لأبي إسحاق الصابي يقول فيه: «مارست الكتابة ستين سنة فلم يحضرني في الدعاء أحسن وأجمع وأوجز من قولهم: جعل الله أيامك مطاياك إلى آمالك». ولا أصلح للنفس مع خصومها من الدعاء لهم بالهداية كلما أوردهم الشيطان على الذهن، لتسلم النفس من الغل، ويهرب الشيطان بذكرهم خوف هدايتهم بالدعاء، كما يؤكد على ذلك الأستاذ عبد العزيز الطريفي. وهناك دعاء طريف مشهور ينسب للإيرلنديين، يقولون فيه:» ليت أولئك الذين يحبوننا، يظلون يحبوننا ... وأولئك الذين لا يحبوننا، ليت أن الله يغير قلوبهم لكي يحبونا، وإذا لم يفعلوا، فليت أن الله يلوي كواحلهم حتى نعرفهم من مشيتهم العرجاء».

إن من علامات الخذلان ثلاث: تعسر الطاعات عليك مع السعي فيها، ودخول المعاصي عليك مع الهرب منها، وغلق باب اللجوء إلى الله وترك الدعاء في كل الأحوال. وما أدق تعبير الشيخ محمد الغزالي حين قال: «محنة البشر أنهم مكلفون بالارتقاء إلى الملأ الأعلى، على حين أنهم خلقوا من حمأ مسنون!».

الأرواحُ جنودٌ
ما تعارفَ منها ائتَلَفَ

إن دراسة الحضارات توقفنا على حقيقة كبرى، وهي أن مصير الإنسان كان يتوقف دائما على أمرين كما يقول (أرنولد توينبي): «علاقته بربه، وعلاقته بأخيه الإنسان». والبعد الروحي الأخلاقي هو المركز والمحور في هاتين العلاقتين.

والجاذبية الحقيقية للمرء، كما يؤكد على ذلك الدكتور عبد الكريم بكار، لا تنبع من الشكل الظاهر، وإنما من جمال الروح وصفاء النفس وحسن الخلق، وإذا انجذبنا لشخص جميل الصورة، فإن ذلك لا يعدو أن يكون انطباعا أوليا يتم ترسيخه، إذا وجدنا جمال الصورة الداخلية مطابقة للصورة الخارجية، ويمحى سريعا إذا وجدنا غير ذلك.

وكل روح تجذب ما يماثلها، ولا يمكن أن يأتيها إلا ما ينتمي إليها، وحين تدرك هذا تفهم كونية القانون الإلهي، وإذا كانت الطيور على أشكالها تقع، فإن الأرواح كذلك، إن لم تقع على بعضها، فهي تجذب إليها ما يشبهها تماما، مصداقا لحديث النبي - صلى الله عليه وسلم -: (الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف). والعلاقة الروحية بين الله وبين الإنسان هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، وفق تعبير المفكر الجزائري (مالك بن نبي)، وهذه بدورها تربط بين الإنسان وأخيه الإنسان. والتأنق الروحي، هو مشاعر بالنسبة إلى من يظفر به، وهو خير ونماء ورخاء بالنسبة إلى الآخرين.

ولطالما أدهشني (والكلام للأستاذ أسعد طه) قول الله لفرعون وكأنه عز وجل يتهكم منه: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ {يونس:٩٢} ، فأيُّ نجاة وقد مات؟ وما قيمة نجاة

البدن وقد هلكت الروح؟ نفس الأمر في كل معركة، أي نجاة إذا هلكت الروح بصورة أو بأخرى؟ ما الفائدة في أن تنجو ببدنك وتفقد أهم شيء؟ أسئلة في حاجة إلى إجابات صريحة، حتى لا ندخل مع الآخرين في معارك خاسرة، ونظن أن النجاة بالبدن وخسارة الروح نجاة... وهي ليست كذلك بكل تأكيد.

وإذا صح القول: إن الذات الإنسانية طبقات، بعضها فوق بعض، فإن أعمق تلك الطبقات هي طبقة الروح ذلك البعد الفسيح المدى، الشفاف جدا، والمبهم جدا، والمهم جدا. وإن أعظم المعارك يتم خوضها وحسمها في حجرات صامتة داخل الروح، ففيها تصنع الانتصارات والهزائم الكبرى، وأساس النجاحات الشخصية هو نجاح روحي في المقام الأول. وما انسجام الإنسان مع الآخرين، إلا دليل على نوع من التوافق الداخلي، الذي يعمل عمل المغناطيس ليقرب الناس إلى بعضهم، وإن لم يصل هذا التوافق إلى حد التطابق.

لقد صار كثير من المسلمين يعيش حياة، هي أقرب إلى حياة النبات، فهو يأكل ويشرب ما يتيسر له، ويتنفس ويتكاثر، ثم يموت، أما ارتقاؤه الروحي والعقلي والخلقي، فإنه قد أمسى من الماضي البعيد. والخواء الروحي يجعل الإنسان يشعر بأن حياته من غير معنى، أما الثراء الروحي فيمنح الإنسان آفاقا واسعة لذاته أولا، ولتواصله وتوافقه مع الآخرين ممن يشبهونه ثانيا، مع قدرة فائقة على التواصل مع من لا يشبهونه، بشكل يعجز عنه من أصيبوا بالخواء الروحي ثالثا.

ورمضان أيها القراء الأفاضل، كما تشير الدكتورة (هبة رؤوف عزت)، ليس

شهر عبادة من أجل نجاة الإنسان وحده، يقيس فيها المؤمن نصيبه من الجنة بالشبر والذراع، ويعد الحسنات كما يحسب رصيده في البنك، بل هو شهر من شهور الأمة كي تتراحم لا بصدقة خفية أو أموال زكية، بل بتحول خلقي وسلوكي شامل وكامل، تتربى عليه الأمة في تلك الأيام، بمثلما تتربى على كظم الغيظ وترك الجدل في الحج، لا لتخرج من تلك الأزمنة إلى غيرها وقد تخلَّقت بذلك الخلق أياما، بل لتستطب الرحمة معها في بقية الأزمنة والأمكنة فترتقي عبادة بعد عبادة، وعاما بعد عام.

...

حَدِيثُ الرُّوحِ
لِلْأَرْوَاحِ يَسْرِي

شاعر الإسلام العظيم الفيلسوف (محمد إقبال)، جمع بين الشعر والفكر والفلسفة، فجاء شعره يحمل بصمات هذه وتلك، فهو ليس من الشعراء الذين في كل واد يهيمون، ويقولون ما لا يفعلون، بل هو ممن استثناهم الله في الآية، ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ {الشعراء:٢٢٧} ، نحسبه كذلك ولا نزكيه على الله، وقد شدا إقبال بشعره فأسمع بني قومه في القارة الهندية، وترجمت أشعاره إلى أكثر من لغة، ومنها العربية، وقد قبست لكم عشرة أبيات من قصيدته حديث الروح، وهي من غرر قصائده، وشعر إقبال له ميزة متفردة، وكأنه يحمل (لغة السماء)، وقد جاء شعره محملا بمشاعر وعواطف جياشة مخلوطة بفكر متسام يعلو فوق الماديات ويحلق في سماء الروحانيات، وهاكم الأبيات التي قبستها لكم:

حديث الروح للأرواح يسري

فتدركه القلوب بلا عناءِ

هتفت به فطار بلا جناح

وشق أنينه صدر الفضاء

ومعدنه ترابي ولكن

جرت في لفظه لغة السماءِ

لقد فاضت دموع العشق مني

حديثاً كان علوي النداءِ

فحلق في ربى الأفـلاك حتـى

أهاج العـالم الأعلى بكائـي

تحاورت النجوم وقـلـن صوت

بقرب العرش موصول الدعاء

وجاوبت المجــرة علّ طيفاً

سرى بين الكواكب في خفاء

وقال البـــدر هذا قلب شاك

يواصل شدوه عند المسـاء

ولم يعرف سوى (رضوان) صوتي

وما أحراه عنــدي بالـوفاء

ألم أك قبـل في جنات عـدن

فأخـرجني إلى حيـن القضاء

وعندما كان بـلال بـن ربـاح رضي اللـه عنه يـردد مقطوعتـه البديعة (أحـد أحد)، لم يكـن يتحـدث بلسـان اللحـم والـدم، بـل كان يترنـم بلسان الـروح ولغـة السـماء، التي لم يفهمهـا سـيده بالطبـع. «الـروح في صـوت بـلال هــي التـي تتكـلـم، وتتحـدى بلغتهـا اللحـم والـدم، وكأنمـا كان يتحـدى هـو أيضاً بسـبابته المرفوعـة طبيعـة البـشر، ويرفـع بهـا في لحظـة معينـة مصير الديـن الجديـد»، كـما يقـول المفكـر الجزائـري (مالـك بـن نبـي).

ولذلـك لم يكـن خشـوع هـؤلاء العظـماء يـأتي بِقَبـض عَضَـلات الجَسـد أو إثـارة

الذِهـن؛ بـل بفتـح مسـام الـروح لينفـذ مـن خـلال هـذه المسـام نفحـات خالقهـا وواهبهـا، فتلونـت حياتهـم بممارسـة الخُشُـوع للـه في الحيـاة، ﴿قُـلْ إِنَّ صَـلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ {الأنعام:١٦٢} ، كطريق للذوبان خشوعاً في الصـلاة، ﴿الَّذِيـنَ هُـمْ فِي صَلَاتِهِـمْ خَاشِـعُونَ﴾ {المؤمنـون:٢} .

إن كلام الإنسـان هـو الـذي يحـدد معـالم شـخصيته، إذ بـه تعـرف اسـتقامته، وصدقـه، وأدبـه. وبـه يكـون خفيـف الـروح، أو ثقيـل الظـل. وبـه يكـون مهذبـا لبقـا، أو فظـا غليظـا. وبـه يكـون ذا وجـه واحـد، أو ذا وجهـين أو أكـثر، بـل بـه تكـون كلمـة الإيمـان أو كلمـة الكفـر. إنـه الترجـمان الـذي يكشـف عـما في النفـس، والشـاهد الـذي يفصـح عـما في الضمـير. ومـن أجمـل التعريفـات التـي قدمـت للضمـير، وأكثرهـا سـموا ووضوحـا، تعريـف (جـان جـاك روسـو) الـذي وصفـه: «بأنـه صـوت الـروح، والأهـواء صـوت الجسـد».

ومـن الملاحـظ فعـلا أن المحسـوس الملمـوس، هـو الـذي يتحـدث بصـوت أقـوى مـن المعنـوي والاعتبـاري في حيـاة النـاس في هـذا الزمـان وفي غـيره، ولهـذا فـإن اسـتجابة النـاس للـمادة ومـا يتصـل بهـا أقـوى بكثـير مـن اسـتجابتهم لصـوت الـروح والتداعيـات الاعتباريـة.

وقـد كانـت هديـة اللـه إلى أهـل الأرض روحـا، روحـا أوحـاه اللـه لحبيـب القلـوب والأرواح صلـوات ربي وسـلامه عليـه، فالتقـت في شـخص النبـي الكريـم (نفخـة الـروح الأولى) مـع (وحـي الـروح)، قـال سـبحانه وتعـالى: ﴿وَكَذَلِـكَ أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ رُوحًـا مِنْ أَمْرِنَـا مَـا كُنْـتَ تَـدْرِي مَـا الكِتَـابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِـنْ جَعَلْنَاهُ نُـورًا نَهْـدِي بِـهِ مَـنْ

نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ {الشُّورى:٥٢} ، وقد كان سفير السماء إلى الأرض روحا، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ {الشعراء:١٩٣}، فأشرقت الأرض بنور ربها، وتجاوبت جنبات الكون مرددة حديث الروح، فقالت الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ {الجنّ:١} ، وقالت الإنس: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ {البقرة:٢٨٥} ، وأصر بعض بني الإنسان على التمرد، فكانوا كما قال الله عنهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ {البقرة:١٨} ، فسبحان من أمد الأرواح بروح جديدة، هي روح القرآن، كي تستمر الحياة في الدنيا والآخرة.

جَمالُ الرُّوحِ
حَيَاةٌ وَنَضَارَةٌ

جمال الروح هو الأصل في جمال الوجود كله! وكل شيء بعده تبع له! تلك هي النتيجة العامة والخلاصة التي يمكن أن نخرج بها من هذا المقال، أو قل هذا هو العنوان وإليك التفاصيل.

لنبدأ من الإنسان، ما الذي يعطي الإنسان قيمته؟ بل ما الذي يمنحه هذا الجمال الأخّاذ، نضارة الوجه، بريق العينين، تناسق القوام، نعومة البشرة، حسن المظهر الخارجي...؟ أليست هي الروح التي تعكس أنوارها الجمالية على الجسد فيصبح مقبولا محبوبا مرغوبا (له شم وطعم كما يقولون). تدخل الروح على الجسد فتكسبه قيمة ومكانة، وتمنحه رونقا وجمالا، فإذا ما فارقت الروحُ الجسدَ بالموت أخذت معها الجمال والقيمة، وأصبح ما كان يسمى بالإنسان مجرد جثة، لو تركت أياما بدون دفن لرأينا منظرا بشعا لا يمكن تخيله.

والسؤال: أين ذهب ذلك الجمال والحسن والنضارة؟ والجواب: لقد ذهب مع الروح كما أسلفنا. وبناء على ذلك يمكن القول: أن الجمال الحقيقي هو جمال الروح وأي جمال بعد ذلك هو مجرد انعكاس له لا غير. حتى عندما نريد أن نكسب الأشياء المعنوية أو المادية نوعا من الجمال أو القيمة أو المكانة، أو نريد أن ننوه بما فيها من محورية وجوهرية، فإننا لا نجد تعبيرا لذلك إلا أن نجعل الروح تسري فيها، فنقول روح الإسلام، روح الصلاة، روح الحضارة، روح الحياة، روح القانون، روح الجهاد... وهكذا، فهل أدركتم الآن أن شرف الإنسان ومكانته وقيمته وجماله ورونقه كل ذلك متعلق بالروح وجودا وعدما؟

إن الجمال ينبثق عن الروح مباشرة، وعلاقة الجمال بالروح علاقة مباشرة.

الجمال شكل خارجي نعم، أي بنية مادية شكلية بصيغة من الصيغ، ولكنه عند التعامل معه جماليا فإنه لا يتم التعامل معه من خلال بنيته المادية الشكلية أو الصورية وإنما من خلال الروح المتلقية. أي أن الحاجة الروحية للجمال هي التي تحكم العلاقة الجمالية التي تحدد باقي آلية التذوق والتلقي الجمالي، وعند هذه النقطة تحديدا يتضح الفرق في العلاقة بين الإنسان والأشياء، فالشيء ذاته يمكن أن نتعامل معه تعاملا جماليا أو نفعيا أو أخلاقيا أو غير ذلك، وكل ذلك عائد إلى ما تحمله الروح المتلقية من جمال.

لقد سألوا قيسا بن الملوح (مجنون ليلى) عن سبب حُبهِ لـِ (ليلى) وجنونه بها، وهي ليست جميلة كما بدا الأمر لمن سأله، فقال لهم: ومن منكم يرى ليلى بِعين قيس! وكأنه يقول لهم بلسان الحال والمقال: ومن قال لكم أني أحبها بالعين أو الأذن؟ إن حبي لها مرتبط بالقلب والروح، ولغة الروح غير لغة العيون، والحال هنا ليس موضوع شكل بل جمال روح أراه ولا ترونه، فالحب هو أرواح تعشق، وليس وجوها تُرى، وحَسنٌ في كل عين من تحب، والطفل الذي نراه قبيحا هو في عين أمه ملاكا، أو كما نقول في أمثالنا (القرد في عين أمه غزال)، وهذا يعني أن الشكل أحيانا لا يعبر عن الجمال الحقيقي، فالجمال الحقيقي هو ما وراء ذلك، أي جمال الروح، الذي تستقبله عين المحب فتفسره بلغة الروح لا بلغة الجسد. والإحساس بالجمال حركة عاطفية في الروح وشعور بالفرح والطمأنينة، إنه هزة انفعالية وحلم ولذة خالصة، وهو ينتشر في الموضوع دون أن نعرف السبب في ذلك. إن جمال الروح يهوّن عليك (المصائب)، وجمال النفس يسهّل عليك (المطالب)،

وجمال العقل يحقق لك (المكاسب)، وجمال الشكل قد يسبب لك (المتاعب). هذا الإحساس الفطري بالجمال والحاجة الفطرية له مرتبطة بالروح، وإذا كنا نسمي ذلك في الإنسان فطرة فإنا نسميه في الحيوان غريزة.

والجمال ليس مطلوبا لذاته، ولكنه وسيلة تسعف المؤمن المنيب لمعرفة الحق، وتهديه برفق إليه، وتحضه على العيش مع (الغير) على وِفقه. والإنسان يظل في حاجة دائمة إلى التشبع بجمال الروح، ومهما قام بإرواء هذه الحاجة فإنه لا يصل إلى درجة إشباع تقتضي منه أن يتوقف عن المعايشة الجمالية، أو مواصلة تلقي الجمال.

«إن جذور الأخلاق تكمن في جمال الروح، كما أن جذور الجمال تكمن في التعادل»، كما يقول أفلاطون. ولأن الأخلاق ثمرةٌ طبيعية للجانب الروحي، فإن المفكر الجزائري (مالك بن نبي) ما فتئ يدعو إلى الجمع بين الثقافة والأخلاق، وذكر بأن تطور الثقافة في بلد ما يعني أن البذور الأخلاقية والجمالية فيه صارت أقرب إلى الكمال، ولأهمية الأخلاق والجمال في الحضارات، فقد أقام (مالك بن نبي) المعادلة الحضارية الآتية: مبدأ أخلاقي + ذوق وجمال = اتجاه حضارة.

نعم، الإنسان يحب الحياة فيجمّلها، ويتجمل هو في أثناء تجميلها! يجمّلها في عالم المادة والروح، في النطاق المحسوس ونطاق المعنويات. ولا شك أن هناك في باطن النفس تفطنٌ للجمال، تحسه النفس وتستجيب له، ولكنها لا تحسِب ولا تقدّر، وإنما تدركه بداهة بدون تفكير، على طريقة الروح في الإدراك، لا على طريقة الذهن ذي الأبعاد والمقاييس، وفق تعبير الأستاذ (محمد قطب).

ولو تأملنا حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي قال فيه: (إن الله جميل يحب الجمال)، لعرفنا من أين تغترف الروح جمالها، فالذي سمى نفسه الجميل سبحانه يفيض على الروح من أنوار جلاله وجماله وكماله، لأنها منه، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ {الحجر:٢٩} ، ودوامها يتوقف عليه جل في علاه، ومآلها إليه سبحانه.

والنظرة الإسلامية للجمال تشد انتباهنا دائما إلى ما وراء حواسنا، حفزا للهمم، وإتاحة لتمتع أرقى بمجالي الجمال المطبوع والمصنوع، ومعنى ذلك بصريح العبارة أن الإسلام لا يرضى لمعتنقه أن يكون سطحياً أو شكلياً تأسره الصورة الحسية في مظهرها القريب، بل يدعوه دائما نحو الأعمق، وذلك راجع إلى طبيعة الإسلام ذاتها، من حيث اهتمامه بالعمق الإنساني الممثل في النية أو الضمير، باعتبار أن هذا العمق ذاته هو مصدر ما نرى من أفكار، أو خواطر، أو مشاعر، أو أعمال محسوسة. ولذا ظل الإسلام دائماً متمسكاً بمقياس البواعث والدوافع ضماناً لسلامة الحكم، وهذا بالتأكيد لا يمكن إدراكه والتحقق منه إلا من خلال الروح وظِلالها الجمالية.

بَصْمَةُ الرُّوحِ
يَقُولُونَ مَرَّ وَهَذا الأَثَرُ

بصمة الروح لا تشبه البصمات المتعارف عليه (بصمة اليد أو العين)، إنها بصمة خاصة، وغير مرئية بالعين المجردة، ولكن مداها واتساعها وأثرها قد لا يحده حد، هذه البصمة الروحية لا يمكن مطابقتها إلا من خلال الأشعة الإيمانية التي تصدر عنها، فكلما زادت أشعة الإيمان وتوسع مداها، دلتنا على بصمة روحية متأصلة وراسخة في صاحبها.

لقد أرسل نبي الله يوسف عليه السلام قميصه إلى أبيه، وفي ثنايا هذا القميص بصمته الروحية، فشمَّ يعقوب عليه السلام البصمة، ونادى: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ {يوسف:٩٤} ، وعندما أُلقي هذا القميص الذي حمل البصمة اليوسفية على وجه الأب كانت النتيجة: ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ {يوسف:٩٦} /، إنها بصمة روحية نبوية عابرة للزمان والمكان، لا ترد إلى العين البصر فقط، بل ترد إلى البدن الروح.

وليس الذي يجري من العين ماؤها

ولكنها روح تسيل فتقطر

ولأن النبل بالنبل يذكر، فقد سبق يوسف جده الأعلى إبراهيم الخليل عليهم سلام الله، أقول سبق ووضع بصمته بالحبر الأسود في سويداء الأرض ومهوى الأفئدة (الكعبة المشرفة)، وشاركه في هذه البصمة الابن النبيل إسماعيل عليه السلام، وقد رصد القرآن هذه البصمة الصوتية وخلدها فعبرت الزمان والمكان، ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ {الحج:٢٧} ، ومع هذا التخليد غير القابل للمحو، نادى إبراهيم الخليل

ربه أن يديم له هذه البصمة فقال: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ {الشعراء:٨٤} ، فامتد ذكره، فهو أبو الأنبياء الذين أناروا الكون بأنوار التوحيد، وهو من سمّانا المسلمين، ونحن المسلمين أولى به وببصمته الروحية العظيمة، وهاهم عظماء القدس والأقصى وفلسطين عامة، يضعون بصمتهم التاريخية، ويعمدونها بمداد أحمر، دفاعا عن أولى القبلتين وثالث الحرمين، في وجه صلف بني صهيون، ومن تصهين من العرب.

وجاء نبي الله سليمان عليه السلام، ليواصل المسيرة التي سار عليها والده داوود عليه السلام، الذي كانت بصمة من نوع خاص، هذه البصمة لم يطبعها على الورق أو تستقبلها أجهزة المسح، لا هذا ولا ذاك، لقد وضع بصمته على الجبال وعلى أجنحة الطيور: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ {سبأ:١٠} ، وصار كل صوت جميل شجي سماوي الهوى والهوية، ينسب إلى مزامير داوود، لنعد إلى سليمان الذي طلب من ربه بصمة خاصة لا يشاركه فيها أحد مهما علا مقامه، وقد أجاب الله دعاءه، وتفهم إخوانه من الأنبياء طلبه عندما دعا فقال: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ {ص:٣٥} .

ولو استعرضنا تاريخ الأنبياء والعظماء، لوجدنا أن بصماتهم ماثلة فيما تركوه لنا من آثار ومآثر، ووضعوا بصمات لا يمكن للزمان أن يمحوها، ولكن المقام لا يتسع لبسط جميع البصمات والكشف عنها، ومع ذلك، فلن نغفل ذكر من نحن بعض آثار بصمته، وحسنة من حسنات إشراقاته الروحية، لعلكم قد أدركتم

من أعني، إنه صاحب أعظم بصمة عرفتها البشرية، وأجل بصمة طبعت على جبين الزمان والمكان، بصمة لا تبلى مع مرور الزمان بل تزداد إشراقا ورسوخا، إنها بصمة الحبيب التي ختم بها على قلوب المؤمنين، فصار لا يذكر اسمه إلا وتتحرك الألسنة بالصلاة والسلام عليه، عازفة سيمفونية الحب الأبدي الذي لا تمل القلوب والألسنة من تلاوتها وترديدها.

تعالوا بنا نطالع بعض بصماته صلوات ربي وسلامة عليه، كما عبر عن بعضها القرآن، فأول بصماته التي طبع بها وعليها القلوب هي التوحيد، فكان يحث أصحابه على تجديد بصمة القيومية دبر كل صلاة، ﴿ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ ﴾ {البقرة:٢٥٥}، ويحث على تكرار بصمة الإخلاص مع بداية اليوم ونهايته وما بين ذلك ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ(١) اللهُ الصَّمَدُ(٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ(٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ(٤) ﴾. {الاخلاص}. ، فأصبح التوحيد نشيد الأبرار من أصحابه رضوان الله عليهم، وكان حادي القوم في هذا النشيد بلال رضي الله عنه، في أشد لحظات معاناته من جبابرة الجاهلية، إلا أنه لم يفتر من ترديد (أحد أحد)، وقد كرّمه المصطفى - صلى الله عليه وسلم - بأن منحه ميدالية (بصمة التوحيد)، فكان مؤذن الرسول والمنادي بالتوحيد خمس مرات في اليوم.

وإليكم بصمة أخرى من البصمات التي ذكرها القرآن للنبي العظيم - صلى الله

عليـه وسـلم -، إنهـا بصمـة الرحمـة التـي وسـعت الزمـان والمكان في هـذه الأرض، وقـد تقلـد الرسـول ميداليـة هـذه البصمـة عـن جدارة، فخاطبـه ربـه بقولـه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ {الأنبيـاء:١٠٧}، ولذلـك كان حقا عـلى مـن يحبـون هـذا النبـي العظيـم، الرحمـة المهـداة، والنعمـة المسـداة، أن يوسـعوا مـدى هـذه البصمـة حتـى تعـمَّ الأرض ومـن عليهـا، أليسـوا أتبـاع مـن أرسـله اللـه رحمـة للعالمين؟ بـلى، هـم كذلـك، وهـذا هـو التحـدي الـذي عليهـم أن ينهضـوا بـه، ليعـمَّ خـير هـذه البصمـة مشـارق الأرض ومغاربهـا.

ودعـوني أزيدكـم بصمـة أخـرى، دون أن يعنـي هـذا أننـا اسـتقصينا جميـع بصماتـه صلـوات ربي وسـلامه عليـه، إنهـا بصمـة صبغـت ديـن هـذا النبـي العظيـم وتخللتـه، حتـى لم تـترك زاويـة فيـه إلا وبلغتهـا، إنهـا بصمـة تضـع حملـة هـذا الديـن ومعتنقيـه عـلى المحـك، فلقـد عظّـم اللـه مـن شـأن هـذه البصمـة ورفـع شـأنها، إنهـا (بصمـة الأخـلاق)، التـي حـاز النبـي ذروتهـا، ليـس بشـهادتنا القـاصرة، ولكـن بشـهادة مـن أعطـاه إياهـا: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ {القلـم:٤} ، إنهـا بصمـة، إذا ضممنـا إليهـا بصمـة التوحيـد والرحمـة فسـنكون أمـام حشـد مـن العظمـة والسـمو لا يمكـن بلوغهـا إلا مـن خـلال عظيـم كمحمـد - صـلى اللـه عليـه وسـلم -، ولـن يدانيهـا إلا مـن كان عـلى خطـى صاحـب الديـن القويـم.

ولأن هـذه البصـمات الروحيـة النبويـة التـي سـبق الإشـارة إليهـا وغيرهـا، لا يمكن أن تحملهـا الأجسـاد فقـد وكّلـت بهـا الأرواح، وهـل هنـاك روح عظيمـة تقـوم بذلك على أكمـل وجـه غـير روح الحبيـب صلـوات ربي وسـلامه عليـه؟ لقـد كان عطـاء اللـه لـه مـن

العظمة والكرم بحيث قال له: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ {الضُّحى:٥} ، وقد أعطاه حتى رضي، ومنحه بصمة لم ينلها بشر قبله أو بعده، فقرن اسمه باسمه، فلا يرتفع أذان أو إقامة إلا واسم النبي يتخلل ذلك، إنها بصمة لا تضاهيها بصمة، فكنا به أكرم الأمم، كما كان هو أكرم الرسل.

لقد أخذني السياق وتداعت عليّ الأفكار، فلم أتمكن من لملمة هذا الموضوع في فقرات مختصرة، وإن كنت أعتذر من أصحاب البصمات من الأنبياء والعظماء الذين لم يشملهم هذا المقال، إلا أن بصماتهم تتخلل عالمنا، ونرى آثارها في كل زاوية من زوايا الكون، نعم، لقد ذهبوا إلى ربهم، ولكن بصماتهم باقية تحدثنا عنهم فنذكرهم ونصلي عليهم وندعو لهم، وهذا من فضل الله عليهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

أخيرا، أتساءل: ترى ما هي البصمة الروحية التي سنتركها بعد أن نرحل؟ أما الرحيل فلا جدال فيه طال الزمان أم قصر، والأمر فيه يقين جازم، ولكن ماذا عن البصمة؟ لو حضر هذا السؤال عند كل إنسان لتغير وجه الأرض، ولأصبحت البصمات تبني وتسعد وتدخل السرور وتعين وتواسي.

اسأل نفسك بصدق: هل تود الرحيل عن هذه الدنيا لتطوى صفحتك في اليوم التالي؟ أم تحب أن يكون لك بصمة راسخة مستمرة؟ (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث...)، وهذه الثلاث البصمات التي ذكرها الحديث مجرد أمثلة وليست كل البصمات، أنت أدرى ببصمتك، وأنت أيضا أدرى بكيفية توسيعها وترسيخها ومدها زمانا ومكانا، ضع بصمتك في مكانها الصحيح، واجعل الحبر

الـذي تضعهـا بـه غامقـا، حتـى يـدوم أثرهـا، ويدعـو لـك مـن أبصرهـا. نحـن لا نمـوت حـين تفارقنـا الـروح وحسـب، نحـن نمـوت قبـل ذلـك حـين تتشـابه أيامنـا، ونتوقـف عـن التغيـير، حـين لا يـزداد شيء فينـا سـوى أعمارنـا وأوزاننـا.

وكن رجلا إن أتوا بعده

يقولون مرَّ وهذا الأثر

تم بحمد اللّٰه

التعريف بالمؤلف

- **البيانات الشخصية:**

الدكتور: يحيى أحمد حسين المرهبي. أستاذ أصول التربية المساعد، كلية التربية والعلوم التطبيقية . ـ جامعة عمران. محل وتاريخ الميلاد: حجة ٥/ ٢/ ١٩٧٣م. محل الإقامة: الجمهورية اليمنية / محافظة عمران ـ مدينة عمران ـ حارة النهضة السكنية ـــ شارع ٢٢مايو. رقم الموبايل: ٠٠٩٦٧٧٧٧٤١٥٥٦٠٢ بريد إلكتروني:٢٠١٠com.gmail@almerhbi

- **المؤهلات العلمية:**

- (٢٠١٦) دكتوراة - فلسفة التربية قسم أصول التربية - سياسات تربوية / جامعة الدكتور بابا صاحب امبيدكار/ مهاراشترا / اورنق أباد / جمهورية الهند.
- (٢٠٠٨) ماجستير أصول تربية ـ جامعة صنعاء ـ كلية التربية للعام بتقدير عام: جيد جداً. ٨٢,٥ ٪
- (٢٠٠٤) تمهيدي ماجستير أصول تربية ـ جامعة صنعاء ـ كلية التربية للعام بتقدير عام٨٢,٦٦٪ جيد جداً.
- (٩٨/٩٩) بكالوريوس تربية ـ كلية التربية عمران ـ جامعة صنعاء بتقدير عام جيد للعام ٩٨/٩٩م.

- **الإنتاج العلمي:**

- رسالة الدكتوراه بعنوان : (دراسة واقع تربية المواطنة في المدارس الثانوية في العاصمة صنعاء(.
- رسالة الماجستير بعنوان : (العوامل المؤثرة على قيم المواطنة لدى طلبة المرحلة الثانوية بمحافظة عمران)
- لديه ثلاثة أبحاث منشورة باللغة الإنجليزية في مجلات محكمة في جمهورية الهند.
  - عنوان البحث الأول: (مسؤولية المؤسسات الاجتماعية في بناء قيم المواطنة لدى طالبها) ٢٠١٣م.
  - عنوان البحث الثاني: (دور الأسرة والمدرسة تطوير قيم المواطنة لدى أبنائها التلاميذ) ٢٠١٦م.
  - عنوان البحث الثالث: (آليات تفعيل قيم المواطنة لدى طلبة المرحلة الثانوية في الجمهورية اليمنية) ٢٠١٦م.
- لديه بحثان منشوران في مؤتمرين علميين في اليمن ، هما:

o دور الفروض الكفائية في تحقيق التنمية المستدامة، المؤتمر العلمي الثاني لجامعة الأندلس تحت عنوان)التنمية المستدامة ركيزة للأمن والاستقرار والسلام(، صنعاء، أكتوبر ٢٠٢٠م.

o الدور المأمول من الجامعات اليمنية في خدمة المجتمع المحلي في ضوء الوظيفة الثالثة للجامعات، المؤتمر الثاني لجامعة البيضاء، الجمهورية اليمنية، أغسطس ٢٠٢١م.

- لديه أبحاث وكتب لم تنشر ورقيا ونشرت الكترونيا هي:

o كتاب بعنوان: (اطمئنان قلب). منشور ٢٠٢٠م

o بحث بعنوان: (دور الفروض الكفائية في تحقيق التنمية المستدامة). منشور ٢٠٢٠م.

o كتاب بعنوان: (ثقافة البناء ... أفكار ورؤى مؤسسة ودافعة للبناء) منشور ٢٠٢٠م.

o كتاب بعنوان: (على بصيرة ... تأملات في الدين والحياة). منشور ٢٠١٩م.

o كتاب بعنوان: (قد أفلح من زكاها). منشور ٢٠١٩م. ونشر ورقيا عن طريق دار المشرق الدولية للكتاب ـ ماليزيا.

o كتاب بعنوان : (مرايا الذات . بحث عن الحقيقة) ، منشور ٢٠٢١.

ملاحظة:

رسالة الماجستير والدكتوراة، إضافة إلى الكتب السابقة مرفوعة على موقع مكتبة نور وغيرها على شبكة الإنترنت، ومسموح بتنزيلها من هناك. . كما أن لديه بعض المشاريع لكتب ودراسات وأبحاث لم يستكمل إنجازها وتحتاج إلى وقت.

هــذا الكتــاب علــى صغــر حجمــه، يناقــش موضــوع الــروح، لا مــن حيــث ماهيتهــا وكنههــا، ولكــن مــن ناحيــة حياتهــا وســموها، ويحــاول أن يغــوص في ثنايــا كلام اللّه ســبحانه وتعــالى، وكلام نبيــه صلــى اللّه عليــه وســلم، ليقبــس بعضــا مــن الــدرر التــي تضــيء لهــذه الــروح طريقهــا، كــي تعــاود العــروج مــرة أخــرى إلى باريهــا، كما يحاول هــذا الكتــاب أن يتطــرق إلى بعض الوســائل المعينة للإنســان، التي مــن خلالها يســتطيع أن يضــع قدميــه علــى ســلم الرقــي الروحــي، كــي يتخلــص ـ مــا اســتطاع إلى ذلــك ســبيلا ـ مــن ثقــل طينتــه، التــي تعمــل علــى إبقائــه ملتصقــا بــالأرض الطينيــة، بينمــا هــو يعشــق التحليــق عاليــا، بجناحــي الحــب والشــوق، ليعــود إلى مســكنه الأول الــذي اُهبــط منــه. أتمنــى أن يكــون مــا تضمنــه هــذا الكتــاب هــو مــا أراده الشــاعر حــين قــال:

حديث الروح للأرواح يسري
فتدركه القلوب بلا عناء.

كمــا أتمنــى أن يجــد القــارئ العزيــز بغيتــه بــين ثنايــا هــذه الصفحــات، وأن يزجــي لصاحبــه بعــض الدعــوات، واللّه الموفــق والهــادي إلى ســبل الســلام.